في رحاب الإمام الكاظم عليه السلام

الشيخ فوزي آل سيف

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على محمدٍ وآله الطاهرين

بين يدي القارئ والقارئة

قبل أحد عشر عاما صدر كتاب (رجال حول أهل البيت)، وبعده بثمانية أعوام صدر كتاب (نساء حول أهل البيت)، وعندما أريد إعادة طباعة الكتابين رأى بعض الإخوة تجزئة هذين الكتابين بحيث يصدر كتيب حول كل معصوم، وأصحابه (رجالا ونساء)، فكان هذا الذي بين يديك، وهو يحقق عدة أمور، منها سهولة تداول كل قسم من أقسامه، بخلاف ما إذا كان أربعة مجلدات كبيرة، ومنها أن الفئة المخاطبة به هي الفئة الشابة وهم يقبلون على الكتاب الصغير حجما، أكثر من إقبالهم على كبير الحجم، ومنها أنه من خلال هذا الجمع سيتم الإحاطة بحياة المعصوم من جهات متعددة.. لكل هذه الأمور، تم تنسيق الكتابين بهذا النحو.

وها هي بين يديك إضمامة عطر من بستان رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأبنائه الطاهرين عليهم السلام تحتوي على حياة خمسة من الرجال الرساليين، وخمس من المؤمنات القانتات.

موجز عن حياة الإمام موسى بن جعفر

أبو الحسن الكاظم عليه السلام

١٢٨ ـ ١٨٣ هـ

ولد عام ١٢٨ هـ وتوفي عام ١٨٣ ومدة إمامته ٣٥ سنة.

شيء عن خصاله وصفاته:

العبادة: كان في الدرجة العليا من التعبد والتبتل لله سبحانه ، فقد عرف بالعبد الصالح ، وأي مرتبة هي أعظم من كون الإنسان عبدا لله لا لسواه . أترى شخصا يحب السجن لأنه سينال فراغا أكبر فقد سجد لله شكرا وهو يقول: اللهم إنني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك ، اللهم وقد فعلت فلك الحمد .

وعندما صار في سجن الربيع بن يونس كان يطل عليه هارون الرشيد من أعلى القصر فيرى ثوبا مطروحا ، فيسأل

عنه ، فيقول له ما ذاك بثوب وإنما هو موسى بن جعفر لـه في كل يوم سجدة هكذا من بعد طلوع الشمس ..

والحلم: وهو سيد الأخلاق ، فقد كان يسيء إليه شخص من أعدائه ، وينبزه بكلام سيء ويشتم أجداده فيحاول شيعة الإمام أن يؤذوا ذلك الرجل ، وينهاهم الإمام حتى إذا كان يوم سأل عنه فاخبر عنه أن ببعض نواحي المدينة في بستانه ، فركب إليه الإمام فلما رآه ذلك الرجل نادى لا تطأ زرعنا .. إلى أن وصل إليه وقال له الإمام: كم غرمت في زرعك هذا ؟ قال: مئة دينار ، قال فكم ترجو منه ؟ قال: لا أعلم الغيب! قال لـه: إنما قلت لك كم ترجو منه .؟ فقال: مئتا دينار .. فأعطاه الإمام ثلاثمائة دينار!! فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته!

وكان يوصي أهل بيته: يا بني إذا أتاكم آت فأسمع أحدكم في الأذن اليمنى مكروها ، ثم تحول إلى اليسرى فاعتذر إليكم وقال: إني لم أقل شيئا فاقبلوا عذره!

والعلم: فقد كان علم آبائه ميراثه الأكبر فقد قال عنه أبوه

الصادق: إن ابني هذا لو سألته عما بين دفتي المصحف لأجابك فيه بعلم .

ويمكن تقسيم حياة الإمام عليه السلام إلى مرحلتين:

ما كان في أيام أبيه - أي خلال السنين العشرين الأولى من عمره الشريف إذ استشهد أبوه سنة ١٤٨ هـ - حيث كان في ضمن تلك الدائرة العلمية العظيمة التي قد بدأها والده الصادق عليه السلام، فنحن نرى كم نقل عن الإمام من أحاديث من بينها ما ينقل بينه وبين أبي حنيفة عندما سأله عن أن المعصية ممن ؟ فأجابه بجواب متين ولما يكن الإمام في تلك الفترة قد تخطى وقت الشباب المبكر .

وكان الإمام الصادق في هذه الفترة دائم الإشارة إليه على أنه الإمام بعده ، وخليفته وحامل علمه . فكان يقول: هذا هو المولود الذي لم يولد فينا مولود أعظم بركة على شيعتنا منه . ويقول لمن حضر وسأله عن الخلف بعده: مشيرا إلى ابنه الكاظم: هذا صاحبك الذي سألت عنه .

والمرحلة الثانية تبدأ من حين استلامه لمقاليد الإمامة: عندما تصاعد الوضع السياسي أيام المنصور العباسي كما ينبؤنا عن ذلك اغتيال الإمام الصادق ، ثم وصيته بذلك النحو حيث جعله واحدا من خمسة لكيلا يقوم المنصور باغتياله مباشرة (أوصى إلى أبي جعفر المنصور ، وحميدة ، ومحمد بن سليمان والي المدينة ، وعبد الله الأفطح ، وموسى) .. واستمر ذلك مدة عشر سنوات تقريبا حتى موت المنصور الذي سلم إلى المهدي عهدته كما ينقل الطبري في تاريخه الجزء السادس ، جثثا من العلويين في خزائن ، ثم خف الوضع قليلا في أيام المهدي ثم الهادي أيضا لمدة قد تصل لعشر سنوات ، وفيها استطاع الإمام أن يقوم ببث علمه ، وتربية أتباعه ..

ولا يعني ذلك أنه كان استرخاء تاما ، فقد كان الصراع الفكري على أشده بين العباسيين وبين أهل البيت فقد تبنى العباسيون بعض الشعراء الفاسدين كمروان بن أبي حفصة الذي كان ينشد الأشعار التي تبعد أهل البيت عن موقع الإمامة ووراثة النبي .

كما شهدت أيام الهادي العباسي ثورة الشهيد الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن المثنى .. صاحب ثورة فخ .. والتي تألم لها الإمام عليه السلام.

إلى أن جاءت أيام هارون الرشيد ، وفيها بلغت المواجهة أيامه بين الحكام العباسيين وبين أتباع الأئمة أقصاها، حيث ظروف المراقبة الشديدة ، كما يلحظ في الألقاب التي تطلق على الإمام الكاظم عليه السلام عند نقل الرواية عنه عليه السلام (الشيخ، والرجل، والعابد، والعالم...) وفي إقدام هارون الرشيد على سجن الإمام لمرات عديدة، ولم يشهد هذا مع غيره من الأئمة عليهم السلام.

كان للإمام الكاظم عليه السلام موقف صريح معارض، يتمثل في اعتبار الخلافة العباسية حكماً ظالماً، وأن التعاون معه ولو في حدود كراية الدواب في طريق مكة، عمل لا يليق بالمؤمن، وأنه من مصاديق الركون للظالمين، ولم يكن يقتصر في بيان ظلم العباسيين ولا شرعيتهم على أصحابه، بل كان يواجه

الحكام بذلك أيضاً، فقد طلب إليه أحد الخلفاء العباسيين تحديد فدك ليردها إليه. فأخبره أن فدك هي بحدود العالم الإسلامي آنئذٍ، يعني أن المغتصب منهم هو منصب الخلافة وقيادة الناس.

وفي المقابل كان الإمام عليه السلام يحيط المحتاجين والفقراء، بكرمه، وعطاياه، وكانت «صرر موسى» قد ذهبت مثلاً آنئذٍ. كما كان يعرف بكظمه للغيظ وعفوه عن الخاطئ، ولذا لقب بالكاظم.

في مواجهة الحكم العباسي للإمام عليه السلام تعددت الأساليب، بتعدد الحكام حيث عاصره المنصور، والمهدي، والهادي والرشيد، فهم من جهة منعوا من الاتصال بالإمام تلاميذه تحت طائلة العقوبة، وشجعوا فقهاء آخرين على الإفتاء ودعوا الناس إليهم، وألزموا المسلمين بالعمل طبقاً لمذهب مالك، بعدما فرضوا (الموطأ) في دوائر الدولة. وحاولوا في نفس الوقت ادعاء أنهم أقرب للرسول من الأئمة، وأن الأئمة

هم أبناء علي لا أبناء النبي، وقد نـاظر الإمـام الكـاظم هـارون الرشيد في المسألة حينما سأله عن ذلـك، فقـال لـه الإمـام: لـو خرج رسول الله وخطب إليك أكنت تزوجه ؟! قـال هـارون: نعم وكنت أفتخر بذلك. فقـال الإمـام: لكنـي لا أزوجـه ولا يخطب إليّ لأنه ولدني!!

۞ روى العلم عنه حوالي ٣١٩ راويا وفقيها .. كان منهم فحول الفقه والمعرفة مثل: يونس بـن عبـد الـرحمن ، وابـن أبي عمير والبزنطي وصفوان بن يحيى ، وهشام بـن الحكـم ، وقـد بلغت مؤلفات بعض هؤلاء عددا كبيرا ..

كما كان لديه من أصحابه من كان في مرتبة وزيـر الـديوان الحاكم ، وهو علي بن يقطـين فكـان يقـضي حـوائج المـؤمنين ، ويمارس دوره الايجابي من ذلك الموقع . وعبد الله بن سنان فقد كان خازنا لهم ، ومحمد بن إسماعيل بن بزيع .

وأخيراً توجت مواجهتهم له بالسجن، لفصله عن أتباعه، والضغط عليه، وأخيراً قتله في السجن. وبالفعل فقد تم سجن

الإمام في سجن عيسى بن جعفر في البصرة أولاً، ثـم في سـجن الفضل بن يحيى، ثـم في سـجن الـسندي بـن شـاهك، ويـرى بعض المـؤرخين أن مجمـوع الفـترات التـي كـان الإمـام فيهـا مسجوناً بلغ أربعة عشر عاماً.

أرسل إليه يحيى بن خالد فقال له: يقول لك ابن عمك إنه قد سبق مني يمين أن لا أخليك حتى تقر لي بالإساءة وتـسألني العفو عما سـلف منـك ولـيس عليـك في إقـرارك عـار ولا في مسألتك إياي منقصة .. فكان رد الأمم عليه: يا أبا عـلي يقـول لك موسى بن جعفر: لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقـضى عنك يوم من الرخاء حتى نفضي جميعا إلى يوم ليس له انقـضاء يخسر فيه المبطلون . وستعلم غدا إذا جاثيتك بين يـدي الله مـن الظالم والمعتدي على صاحبه والسلام .

توفي مسموماً في سجن السندي بن شاهك عام ١٨٣ هـ. ودفن في بغداد..

رجال حول الإمام الكاظم عليه السلام

بهلول بن عمر الصيرفي

توفي سنة ١٩٥ هـ

«ما جن بهلول.. ولكن فرّ بدينه»

تصاعد إحساس هارون الرشيد بالخطر الذي يشكله وجود الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام على وضع خلافته ذلك أن وجود نموذج من رسول الله يمثل مسيرته وعلمه يعني أن يتوجه جمع المسلمين إليه، فكيف إذا كان هذا النموذج من ذرية الرسول؟!.

لقد كان يؤرق مضجعه وجود الإمام الكاظم، فتراه يجلس في الليل أرقاً، يعاديه النوم وإذا حصل عليه، فإنما لكي يصبح قريناً للكوابيس، فيستيقظ فزعا يردد: آه من موسى ابن جعفر هذا الشجى المعترض في حلقي!!.

إنه يعرف موقع الخليفة، ويدرك موقع الإمام، فبينما يكون

الأول حاكماً على الأجساد والمظاهر، بالغلبة فإن ذاك حاكم على العقول والقلوب بالقناعة والاحترام.

ولذلك كان يفكر في (استئصال) وجود الإمام.. ولكن كيف؟!.

❀❀❀

طرق مسرور الخادم باب دار بهلول وكان رجلاً عالماً مشهوراً له بالفضيلة والعلم بين الناس.. وخرج بهلول..

ـ ما تريد؟!.

ـ الخليفة يدعوك..

واستعاذ بهلول بالله.. ما الذي يريد هارون مني؟! هل وصلت وشاية عني إليه؟ وهل أخبر مخبر عن علاقتي بالإمام الكاظم؟! لنتوكل على الله ولِنرَ ما الأمر؟!.

ـ يا بهلول: أعنا على عملنا.. بادره هارون بالقول.

ـ بماذا؟! بأي شيء أعينك؟!.

ـ بعمل القضاء!.

لقد أدرك بهلول مغزى هذا الاستدعاء، وهدف هذه الاستعانة..

نعم قتلُ المؤمنين ببعضهم واستصدار الفتوى من صالحي علمائهم! انتفض بهلول وهو يعيد في خاطره صورة عشرات القضاة الذين كانت فتاواهم أمضى من سيوف الجلادين على رقاب المؤمنين.

ـ القضاء!! لا أصلح لذلك.. ولم يكن هارون غافلاً عن سرّ تمنع بهلول الصيرفي فهو يعرف انتماءه، ولذلك لا بد من الضغط عليه وسدّ جميع الطرق أمامه حتى يقبل..

ـ يا بهلول لقد أطبق أهل بغداد أنك صالح له.

ـ سبحان الله.. قال بهلول:

أنا أعرف بنفسي منهم، فإن كنت في أخباري بأني لا أصلح للقضاء صادقاً، فهو ما أقول، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح لهذا العمل. تغيرت قسمات وجه الخليفة، وبالرغم من أن سيرة الخلفاء في هذه الموارد الاستعانة بالسيف والنطع،

إلاّ أنه لم يكن يريد تصفية بهلول، لقد كان يريد تصفية (إمـام)، بهلول بواسطة فتواه!! لذلك أطلق السهم الأخير قائلاً:

ـ لا ندعك أو تقبل.

ـ إن كان ولا بد فأمهلوني هذه الليلة حتى أفكر في أمري.

في الصباح تجمع الناس على جلبـة وأصـوات، فالأطفـال يركضون من كل جانب وهم يتضاحكون بينما يحمـل بعـضهم الأحجار الصغيرة ويرمي بها ـ جهة.. وهناك وقف رجل عليـه ثياب رثة وقد امتطى صهوة (عصا)، كما يفعل الأطفـال، وهـو يركض تلـك العـصا ـ الفـرس ـ، ويـصيح بالأطفـال وسـائر الناس أن يجتنبوا الطريق لكيلا تطأهم الفرس!!.

أصـيب بعـض الرجـال بالدهـشة، وغـيرهم بـالوجوم، وصفق آخرون على أيديهم أسفاً وحزناً: ـ جنّ بهلـول!! العـالم الواعي، الذي لا يجاريه في مـضمار العقائـد والبحـوث الدينيـة أحد.. اختل! وفقد السيطرة على أعصابه.. ربما لم يحتمل عقلـه هذا الكم الكبير من المعلومات فأثر على توازنه العقلي!!.

وانتشر الخبر بين الناس، كالنار في الهشيم، جنّ بهلول!! جنّ بهلول.

ووصل الخبر إلى قصر الخلافة.. بهلول بن عمر الصيرفي صاحب الإمام الكاظم أصيب بالجنون!

واعترضت وجه هارون ابتسامة غامضة وقال: «ما جنّ بهلول.. ولكن فر بدينه منا»[1].

هذه الحادثة غيرت حياة بهلول الصيرفي إلى أن توفي، غيرت الظاهر منه، لتبقى على الدور الأساسي الذي كان يقوم به قبلئذٍ في تبليغ العقائد الحقة، بل لتضيف إليه دوراً جديداً لم يكن في السابق، وذلك هو المعارضة السياسية غير المباشرة.. لم يكن قد فرّ بدينه ليقبع في زاوية السلبية، بل كان يتحرك في المجتمع هنا وهناك، ناشراً الوعي والطرفة والتعليق السياسي، وكل ذلك ضمن إطار الشخصية الجديدة، التي لولاها لما كان يمكن له القيام بكل هذه الأدوار مع ملاحظة الظروف السياسية آنئذٍ. هاهو يدخل المسجد وقد اعتلى المنبر ـ بعد أن

---

(١) أعيان الشيعة ٣/ ٦١٧.

أفرغ هذا المنبر وسواه من حضور أصحابه الحقيقيين ـ اعتلى المنبر أحد المشايخ من أئمة المذاهب وهو يخطب في الحاضرين:

ثلاثة أشياء يقولها جعفر بن محمد لا تعجبني:

ـ يقول أن العبد هو الفاعل لأفعاله وأقول إن الله هو خالق العبد وخالق أفعاله.

ـ ويقول أيضاً إن الشيطان يعذب بالنار يوم القيامة، وأنا أقول كيف يعذب بالنار وهو مخلوق منها؟! ويقول إن الله تعالى لا يمكن أن يرى مع أنه موجود وأقول إن كل موجود يمكن رؤيته.

وبالرغم من أن الناس عادة يستهويهم قول المناظرات، والدليل ونقضه خصوصاً إذا كان بالأسماء وعلى وجه التحدي، إلاّ أنه لم يدر بخلد أحدهم أن الرد سيأتي من بهلول الذي كان جالساً خلف أحد الأعمدة يستمع، ولم يتوقع أحد طبيعة الرد!!.

ذلك أن بهلول قام في وسط المسجد وأخذ منه مدرة

وصوبها جيداً وكأنها تعرف موقعها أسالت الدم من جبين المتكلم، وثار الهرج بين الناس، وقبض على الفاعل!! وعند الحاكم، بدأ يقرره عن اعتدائه، فأجابه: إنه لم يصنع شيئاً وأضاف:

ـ إنه يقول إن الله هو خالق أفعال العباد، فما ذنبي؟! ويدعي أنه يتألم فليُرِني الألم إذا كان موجوداً، كما يزعم أن إبليس لا تؤثر فيه النار لأنه مخلوق منها، وهو مخلوق من التراب فكيف تؤثر فيه المدرة وهي من التراب؟!.

ونظرا لأن الصراع السياسي بدأ يشتد بدءاً من أيام المنصور العباسي بين خط الأئمة وخط الخلافة العباسية، فقد لجأ العباسيون إلى»صناعة «نظرية تقضي بتفضيل العباس ابن عبد المطلب وتقديمه على أمير المؤمنين علي عليه السلام (وما عشتَ أراك الدهر عجباً)!! و كان العباسيون يستفيدون من فرصة القمع الذي صنعوه والذي أدى إلى أن يتكلم الكثير من العلماء على ما عندهم من العقائد، وفي المقابل فسح المجال لكل ما من شأنه تضعيف خط الأئمة عليهم السلام وإذا كان الكثير من العلماء لا

يستطيعون نشر علمهم، فإن بهلول ـ بهذه الشخصية الجديدة ـ يستطيع ذلك، ويتقن (تمثيل) هذا الدور. لنقرأ ما يقوله التاريخ عن تلك المناظرة الطريفة بينه وبين عمرو بن عطاء العدوي فقد رأى جماعة يسرعون في المشي أمامه، فسألهم: لأي شيء تذهبون؟!.

فقالوا إن عمرو بن عطاء العدوي من أولاد عمر بن الخطاب ومن علماء الزمان وقد حضر مجلس والي البصرة محمد ابن سليمان ونحن نريد تحقيق حاله ومعرفة مبلغ فضله وكماله، وإن كنت تذهب معنا لتناظره كان ذلك حسناً.

فقال بهلول: ويلكم مجادلة العاصي توجب زيادة جرأته على العصيان.

فقال له محمد: لِمَ لا تتكلم؟!.

فقال بهلول: أين للمجانين قوة تمييز هذه الأمور؟! دع عنك ما مضى وأصلح ما نحن فيه فإني جائع! وهكذا تخلص بهلول من المأزق السياسي الذي أراد محمد إيقاعه فيه تماماً كما

استطاع ذلك مع عمرو العدوي.. فخرج وهو يقول:

إن كنت تهواهم حقا بـلا كـذب

فالزم جنونك في جد وفي لعب

إياك من أن يقولوا عاقـل فطـن

فتبتلى بطويـل الكـد والنـصب

مولاك يعلم ما تطويه من خلـق

فما يضرك أن سبوك بالكذب[1]

لقد كان جنونـه أسـلوباً، وأسـماله الرثـة تفرضـها طبيعـة الدور.. وكان يعرف ذلك فلم يضع هدفه لصالح الأسـلوب، بل استخدم الأسلوب خير استخدام لنشر أفكاره ومعارفه.

مرّ ذات يوم على هارون الرشيد، فأخبره هـارون أنـه قـد ابتنى قصراً جديداً، فذهبا لمعاينته، والتفـرّج عليـه، ثـم طلـب

(١) أعيان الشيعة ٣/ ٦١٩.

هارون منه أن يقول شيئاً على عادة الشعراء حينما يصفون قصور الخلفاء، فأخذ بهلول قطعة من الفحم وبدا يكتب على جدار القصر العبارات التالية:

«رفعت الطين ووضعت الدين ورفعت الجص ووضعت النص فإن كان من مالك فقد أسرفت والله لا يحب المسرفين وإن كان من مال غيرك فقد ظلمت والله لا يحب الظالمين».

ولو فكرت عزيزي القارئ في معاني هذه الكلمات وأردت عبارات أدق وأقوى وأجمع لأعياك ذلك. فقد أدان بهلول العمل هذا باعتباره إسرافاً أو خيانة وظلماً، وأدان المنهج الذي يسير عليه الخليفة والقاضي برفع الطين والجص والبنيان، ووضع الدين والنص والإيمان جانباً، بينما المفروض أن تنعكس الآية في حياة الوالي المسلم.

وتارة يقوم بهذا العمل أمام الخليفة وأخرى خلفه.. تتغير الأساليب ولكن الهدف واحد تعرية هذه الخلافة الظالمة. وتعريف الناس بالطريق السليم.

لقد أرسل إليه هارون الرشيد طعاماً جيداً، من مطبخ القصر، ووصل الخادم إلى منزل بهلول، وبينما كان يتلمظ الخادم بريقه لرائحة الطعام الطيبة، أملاً من بهلول أن يسمح له بالأكل معه، قام بهلول بالطعام ليقدمه إلى كلب في خربة مجاورة.. فانتهره الخادم.. إذ كيف يقدم الطعام المرسل من الخليفة للكلب؟! إن هذه اللفتة لو حصلت لكثير من الناس لأسكرته بنشوتها أياماً.. طعام الخليفة!!.

ـ كيف تقدم طعام الخليفة للكلب؟!.

فقال له بهلول: ـ صه.. لا ترفع صوتك فلو سمع الكلب أنه من الخليفة لأبى أن يأكله؟.

محمد بن أبي عمير الأزدي

توفي سنة ٢١٧ هـ

«بلغت بغداد في عهد الرشيد درجة عالية من الحضارة والعمران، فبنيت فيها القصور الشاهقة، وزادت موارد ثروتها وكانت تصل إليها التجارة من أقصى البلدان..»

وصفوة القول إن أيام الرشيد كانت ـ كما يقول السيوطي ـ كلّها أيام خير كأنها في حسنها أعراس..[1]

وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى و إجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين، وقد جعل للمغنين راتب وطبقات..

ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقى في العصر العباسي بفضل اهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة الذين عملوا على

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٢/ ٦٢.

رفع شأنها، وكثيرا ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية في بغداد يشتركن في حفلات موسيقية خاصة..

❁❁❁

«.. كنت قريباً من يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن السبط عليه السلام» في المطبق في أضيق البيوت وأظلمها فبينما نحن ذات ليلة كذلك إذ سمعنا صوت الأقفال وقد مضت من الليل هجعة، فإذا هارون قد أقبل على برذون له، ثم وقف وقال: ـ أين هذا؟ يعني يحيى بن عبد الله بن الحسن.

قالوا: في هذا البيت!!، قال: عليّ به، فأدني إليه فجعل هارون يكلمه بشيء لم أفهمه، فقال: خذوه!!.

فضرب مائة عصا(!) ويحيى يناشده الله والرحم والقرابة من رسول الله ويقول بقرابتي منك، فيقول: ما بيني وبينك قرابة.. ثم حمل فرد إلى موضعه.

فقال: كم أجريتم عليه؟ قالوا أربعة أرغفة وثمانية أرطال ماء.

قال: اجعلوه على النصف. ثم خرج ومكثنا ليالي ثم سمعنا وقعاً ـ فإذا نحن به حتى دخل فوقف موقفه، فقال: عليّ به، فأخرج ففعل به مثل فعله ذلك، وضربه مائة عصا أخرى ويحيى يناشده الله، فقال: كم أجريتم عليه، قالوا: رغيفين وأربعة أرطال ماء. قال: اجعلوه على النصف.

ثم خرج وعاد الثالثة وقد مرض يحيي بن عبد الله وثقل، فلما دخل قال: عليّ به. قالوا: هو عليل مدنف لما به، قال كم أجريتم عليه؟ قالوا: رغيفاً ورطلين ماء قال: فاجعلوه على النصف.. ثم خرج فلم يلبث يحيى بن عبد الله أن مات[1]!!.

بين يدينا صورتان عن العصر الذهبي الذي عاشته بغداد في تاريخها، يهتم المؤرخون عادة بتسليط الأضواء على القسم الأول منها تماماً، كما كان الحكام يظهرون ـ ودائماً ـ هذا القسم. فهم يصطنعون البهجة، ويضفون معالم الزينة على البلاد، ويقيمون الاحتفالات، والاستعراضات، من عمران القصور،

(١) مقاتل الطالبيين ٣٢٠.

كل ذلك بهدف إشعار الناس بالسعادة، وإن كانوا في دركات الشقاء..

فبينما في الظاهر جموع الموسيقيين والشعراء والمغنين وأمثالهم يغدون ويروحون إلى قصر الخليفة ويعودون حاملين عطاياهم وجوائزهم من بيت مال المسلمين، وما حازه مجاهدوهم فإن في الباطن صفوفاً من العلماء البررة، والثوار الأتقياء، يقبعون في ظلم السجون، و تهترىء أجسادهم بسياط الجور.

ومحمد ابن أبي عمير كان واحداً من هؤلاء، فقد عاش في السجن مدة أربع سنين، كان من كبار شيعة أهل البيت عليهم السلام بل كان «من أوثق الناس عند الخاصة والعامة وأنسكهم نسكاً وأعبدهم و أورعهم.. وكان واحد زمانه في الأشياء كلها».

استدعاه هارون الرشيد، وطلب منه الكشف عن أسماء شيعة الإمام الكاظم عليه السلام، ذلك أن هارون كان قد عزم على قتل الإمام الكاظم وتصفية أتباعه، فكان يفتش عن أسماء

كبارهم، وزعمائهم، من وكلاء الإمام في المناطق المختلفة، ولما كان ابن أبي عمير في ذلك الوقت من كبار كبارهم، لذلك وجد فيه ضالته، ورأى أنه عندما يعرضه للسجن والتعذيب فإنه سوف يحصل على ما يريد.

وبالفعل فقد سجن وعذب عذاباً شديداً، فقد كان يأتي هارون ويأمر السندي بن شاهك وهو رئيس السجن أن يبدأ في ضربه لكي يعترف.

هذا خليفة المسلمين! الذي يقول عنه ابن خلدون: «فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه لما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة؟! وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء وبكائه من مواعظهم.. ودعاؤه بمكة في طوفه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلاة.. وأنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة»!![1].

هل كان سادياً؟! يلتذ بأن يرى تعذيب المؤمنين والعلماء،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢١.

إذ نراه تارة يأمر بإنقاص طعام يحيي حتى يصل إلى الربع ويأمر بجلده أمامه وهو على تلك الحالة من الضعف حتى يموت، وأخرى يأمر بجلد محمد بن أبي عمير أمامه، وثالثة.. ورابعة، وعندما نتصفح كتب التاريخ نجد مباشرته أو مشاهدته للتعذيب الذي كان يتم بمخالفيه، فهل كان نشر الإسلام يقتضي ذلك؟! وأن فتح بلاد الكفار لا يتم إلاّ بتعذيب علماء المسلمين؟! أو أن العصر الذهبي لا يكون إلاّ بالسجون والمطابق؟!.

وهكذا دخل السجن ولنكن معه حيث دخل السجن بعد أن «امتنع فجرّد ـ أي من ثيابه ـ وعلّق بين القفازين فضرب مائة سوط.. قال الراوي فسمعت ابن أبي عمير يقول لما ضربت فبلغ الضرب مائة سوط أبلغ الضرب الألم إلي فكدت أن أسمي فسمعت نداء محمد بن يونس بن عبد الرحمان يقول يا محمد ابن أبي عمير اذكر موقفك بين يدي الله تعالى فتقويت بقوله وصبرت ولم أخبر والحمد لله»[1].

والذي يظهر من الرواية أن يونس بن عبد الرحمان كان

(١) تنقيح المقال ٢/ ب ٦٢.

معه في السجن. وبقي ابن أبي عمير في السجن مدة من الزمان حتى اشترى مدة السجن بمبلغ مئة واحد وعشرين ألف درهماً، وكان صاحب مال، إلاّ أن بقاءه في هذه الفترة في السجن أدى إلى ضياع ثروة كبيرة من العلم، فقد اشتهر أنه ألف أربعة وتسعين كتاباً في فروع العلم والعقائد، بقي منها:

١. كتاب المغازي.
٢. كتاب الكفر والإيمان.
٣. كتاب البداء.
٤. كتاب الاحتجاج في الإمامة.
٥. كتاب فضائل الحج.
٦. كتاب الاستطاعة.
٧. كتاب الملاحم.
٨. كتاب الصلاة.
٩. كتاب الصيام.

١٠. كتاب اختلاف الحديث.

١١. كتاب المعارف.

١٢. كتاب التوحيد.

١٣. كتاب الطلاق.

١٤. كتاب النكاح.

١٥. كتاب الرضاع.

١٦. كتاب المتعة.

١٧. كتاب يوم وليلة[1].

وذلك أن العادة في قانون الطغاة أنهم عندما يسلبون حرية إنسان، يسلبونه ماله وعلمه ـ إن استطاعوا ـ ولكون أخت ابن عمير واعية لهذا الأمر فقد أقدمت منذ أن اعتقل على دفن كتبه في الأرض، فلما خرج من السجن كان قد تلف قسم كبير منها.

ونظرا لوثاقته التامة، فقد حاز على ما لم يفز به غيره من

(١) رجال النجاشي ٣٢٧.

رجال الرواية والعلماء إذ عدوا مراسيله[1] مسانيد، وذلك إضافة إلى ما يتمتع به من الوثاقة فإن فيما هلك حال استتاره كان الكتب وأحياناً أسانيد هذه الكتب لذلك «تفرد في تسالم الكل على قبول مراسيله وعدهم إياها بحكم المسانيد المعتمدة.. »[2].

و إضافة إلى علمه فقد كان غاية في الصلاح والعبادة جعله مضرب المثل، وهل كان أتباع أهل البيت عليهم السلام الحقيقيون إلاّ صورة مصغرة عنهم؟! وينبغي أن يكون واضحاً أن عبادة هؤلاء لم تكن تصوفاً أو هروباً من مواجهة مسؤوليات الحياة، كما هو شأن أدعياء العبادة فلو كان أمثال ابن أبي عمير على هذه الشاكلة لما كانوا يتعرضون لجور الحكام

---

(١) تعتمد حجية الخبر في الاستدلال على كونها مسندة بسند معتبر إلى المعصوم ، أما لو كانت مرسلة ـ بمعنى أنه لم يذكر فيها رجال السند ، والرواة إلى المعصوم ـ فإنها لا يمكن الاستدلال بها والاعتماد عليها .. هذا باستثناء مراسيل بعض الثقات ومنهم ابن أبي عمير على المشهور .

(٢) تنقيح المقال ٢/ ب ٦٣.

وسجن الخلفاء، بل يجعلون العبادة حافزاً على العمل ومعيناً على العلم وداعياً إلى الجهاد، وهم في ذلك كله مصداق قول أمير المؤمنين عليه السلام: أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم، فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء[1].

روى الفضل بن شاذان: قال دخلت العراق فرأيت واحداً يعاتب صاحبه ويقول له: أنت رجل عليك عيال وتحتاج أن تكتسب عليهم وما آمن من أن تذهب عيناك لطول سجودك.. فلما أكثر عليه قال: أكثرت عليّ ويحك لو ذهبت عين أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير ما ظنك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما يرفع رأسه إلاّ عند الزوال!!.

---

(١) نهج البلاغة ١٩٣.

هاهو قد خرج من السجن وعاد إلى موقعه الأول يتتلمذ على ثلاثة من الأئمة (الكاظم والرضا وأخيراً الجواد عليهم السلام)، ويتمتع بمنزلة اجتماعية متميزة بين أتباع أهل البيت، فها هو هشام بن سالم يتنازع مع هشام بن الحكم في مسألة عقيدية فيقبلان به حكماً يوقف المخطئ على خطئه. وبالرغم من أنه قد فقد كل ماله، سواء في تخليص نفسه من السجن أو بسبب مصادرة أمواله، إلاّ أنه لم يفقد نفسه الكريمة، فقد كان له على رجل عشرة آلاف درهم فلما علم ذلك الرجل بالحالة الاقتصادية السيئة التي آل إليها ابن أبي عمير بعد خروجه من السجن، وكان المدين ـ بدوره ـ لا يملك هذا المبلغ ليعيده لابن أبي عمير فباع داراً له كان يسكنها بعشرة آلاف، وحمل المال إلى ابن أبي عمير، الذي خرج إليه، فقال له ما هذا:

قال: مالك الذي عليّ!.

قال: ورثته؟!.

قال: لا.

قال: وهب لك؟.

قال: لا.

فقال له: أهو من ثمن ضيعة بعتها؟!.

. قال: لا.

فقال: ما هو؟!.

قال الرجل: بعت داري التي أسكنها لأقضي ديني!!.

فقال محمد ابن أبي عمير: حدثني ذريح المحاربي عن أبي عبد الله قال: «لا يخرج الرجل من مسقط رأسه بالدين» ارفعها فلا حاجة لي فيها وإني والله لمحتاج في وقتي هذا إلى درهم وما يدخل ملكي من هذا درهم واحد!![1].

هكذا.. صودرت وتصادر أموال العلماء والأتقياء، وتمنع حقوقهم لتسفح على أرجل زلزل المغني وزرياب وسائر الماجنين والعابثين، لتعمّد الخلافة بذلك دخولها العصر الذهبي!!.

---

(١) تنقيح المقال ١/ ٤٢١.

ولكــن إن اســتطاعت أن تــصادر أمــوالهم المنقولــة، فــما استطاعت ولا تــستطيع أفكــارهم المعقولــة، ولأن أسرتهــم في مطبقات السجون سنيناً، فقد حفرت لهم قلوب المـؤمنين فيهـا قبوراً وذكراً حسناً، هم فيه خالدون.

الحسين بن علي بن الحسن

ابن الحسن بن الحسن السبط عليه السلام

شهيد فخ سنة ١٦٩ هـ

«لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ»

الإمام الجواد عليه السلام

هجعت المدينة مبكرة، بعد أن أسدل الليل على دروبها، ثوباً قاتماً من الظلام وأخلد واليها عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب إلى النوم، لكن كابوسا قد أقض مضجعه فلم يستطع أن يستريح..

إنه يسمع من على المئذنة صوتاً يؤذن، وليس جديداً ذلك عليه، الجديد هو صوت المؤذن الذي ينادي: حي على خير العمل حي على خير العمل.. وها هم أصحاب السيف من الهاشميين يجتمعون إليه، ليحملوا عليه، وأراد أن يصرخ إلاّ أن

الكلمات تجمدت على شفتيه، وأحس بالعطش الشديد.. وكان الحسين ساهراً، فبعد صلاة الليل وأذكاره منعه الفكر من النوم، ترى إلى أين سيصل المشوار مع هذا الوالي؟! لقد تجاوز الحد في الظلم، ولئن كان كسالفيه سيئاً، فإن سوءه لم يعد يحتمل بعد الآن.. لقد أخذ قبل مدة الحسن بن محمد بن عبدالله الرجل العابد وابن جندب الهذلي الشاعر ومولى لعمر ابن الخطاب وكانوا مجتمعين في بيت الحسن فأشاع أنه وجدهم على شراب، فضرب الحسن ثمانين سوطاً، وضرب ابن الهذلي خمسة عشر سوطاً وضرب مولى عمر بن الخطاب خمسة أسواط!![1].

تبّاً له.. لقد كانت القضية بلا أصل ومكذوبة، ومع ذلك لم يخرج الرجل عن غله وحقده على الهاشميين، فترى حتى في هذه القضية المكذوبة يضرب الحسن ثمانين سوطاً، ومولى عمر خمسة أسواط!!. وجالت الأفكار في ذهن الحسين وقد أرقت راحته.. هذا العرض اللعين الذي يتم كل يوم، والذي يهدف

(١) مقاتل الطالبيين/ ٢٩٥.

إلى إذلال الهاشميين فقط ما الذي يمكن عمله لإنهائه!!.

وتنفس صباح تلك الليلة ليشهد شرارة الانطلاقة الثائرة.. ذلك أن الكابوس الذي شهده الوالي جعله أكثر حرداً وعنفاً على الهاشميين، وكان قد كلف رجلاً من الموالي يقال له أبوبكر بن الحائك، وشدد عليهم في العرض اليومي إذ كانوا ملزمين بإثبات الوجود يومياً، وكان كل واحد منهم ملزم بكفالة غيره حتى إذا غاب ذلك الشخص كان المعاقب!!.

وكان ذلك اليوم الجمعة.. فعرضهم ولك أن تتصور رجلاً من الموالي وابن حائك يستعرض أولاد الرسول وذريته، ليعلم من الغائب منهم حتى يعاقب كفيله!! ولنقرأ ما يقوله التاريخ:

فلما اجتمع النفر من الشيعة في دار ابن أفلح، أغلظ العمري أمر العرض وولى على الطالبيين رجلاً يعرف بأبي بكر ابن عيسى الحائك مولى الأنصار، فعرضهم يوم الجمعة فلم يأذن لهم بالانصراف حتى بدأ أوائل الناس يجيئون إلى المسجد

ثم أذن لهم فكان قصارى أحدهم أن يغادر ويتوضأ للصلاة ويروح للمسجد، فلما صلوا حبسهم في المقصورة إلى العصر، ثم عرضهم فدعا باسم الحسن بن محمد فلم يحضر، فقال ليحيى والحسين بن علي، لتأتياني به أو لأحبسنكما فإن له ثلاثة أيام لم يحضر العرض ولقد خرج أو تغيّب، فراده بعض المرادة، وشتمه، وخرج فمضى ابن الحائك هذا فدخل على العمري فأخبره فدعا بهما فوبخهما وتهددهما، فتضاحك الحسين في وجهه، وقال: أنت مغضب يا أبا حفص!!.

فقال له العمري: أتهزأ بي وتخاطبني بكنيتي؟!.

فقال له: قد كان أبو بكر وعمر، وهما خير منك، يخاطبان بالكنى فلا ينكران ذلك وأنت تكره الكنية وتريد المخاطبة بالولاية.

فقال العمري: آخر قولك شرّ من أوله.

فقال له: معاذ الله يأبى الله لي ذلك ومن أنا منه.

فقال العمري: أفإنما أدخلتك إليّ لتفاخرني وتؤذيني؟!.

فغضب يحيى وقال: فما تريد منا؟!.

قال العمري: أريد أن تأتياني بالحسن بن محمد.

فقال: لا نقدر عليه، هو في بعض ما يكون فيه الناس فابعث إلى آل عمر بن الخطاب فاجمعهم كما جمعتنا.. ثم أعرضهم رجلاً رجلاً فإن لم تجد فيهم من قد غاب أكثر من غيبة الحسن عنك فقد أنصفتنا.

فحلف العمري بطلاق امرأته وحرية مماليكه أنه لا يخلي عنه أو يجيئه في باقي يومه وليلته وأنه إن لم يجيء به ليركبن إلى (سويقة) فيخربها ويحرقها، وليضربن الحسين ألف سوط (!). وحلف بهذه اليمين إن وقعت عينه على الحسن بن محمد ليقتلنه من ساعته (!!).

فوثب يحيى مغضباً فقال له: أنا أعطي الله عهداً وكل مملوك لي حرّ إن ذقت الليلة نوماً حتى أتيك بالحسن بن محمد، أولا أجده، فأضرب عليك بابك حتى تعلم أني قد جئتك! وخرجا من عنده وهما مغضبان. فقال الحسين ليحيى: بئس ـ

لعمر الله ـ ما صنعت حين تحلف لتأتينه به، وأين تجد حسناً؟!.

قال: لم أرد أن آتيه بالحسن والله، وإلاّ فأنا نفي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن علي عليه السلام بل أردت إن دخل عيني نوم حتى أضرب عليه بابه ومعي السيف، إن قدرت عليه قتلته[1].

وهكذا بلغ السيل الزبى.. ولم يعد يمكن الصبر على هذا الأذى والإذلال، وتداعى إلى ذهن الحسين وأخوته كلام جدهم أمير المؤمنين: «الحياة في موتكم قاهرين والموت في حياتكم مقهورين» وصمموا على الحياة بالموت القاهر.

وجاء الليل، وكان يمخض بحنين الثورة!! وبيت الحسين يجمع ستة وعشرين رجلاً من العلويين وعشرة من الحجاج ونفر من الموالي، ومرت الساعات ثقالاً بطيئة كأنها تنحت في جبال الزمن، حتى انشق نور الفجر ومعه أسفرت السيوف عن نقابها واتجه الثائرون نحو المسجد صعد أحدهم على المنارة حيث يؤذن المؤذن وقال له والسيف يلقي ظلال الموت على

(١) مقاتل الطالبيين/ ٢٩٥.

رأسه: أذّن بحي على خير العمل!! فلما نظر إلى السيف أذّن.

كأن هذه الكلمات كانت صاعقة.. إنها تثير المرء للعمل الصالح الخير، وتبعثه نحو الجهاد، عاد إلى الناس ذكر رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين علي عليه السلام، والأذان الذي كانوا يؤذنون به، وتصور بعضهم ـ للحظة ـ أن الزمان قد عاد، وعاد معه الرسول، ليمسح عن الأمة أدران الانحراف، وغبار الفتنة! وخرج الناس سراعاً إلى المسجد لينظروا ما الخبر؟.

بينما تحقق والي المدينة أن كابوس الليلة البارحة كان نذير شؤم له. وأحس بالشر ودهش حتى فقد السيطرة على نفسه كاملاً وصاح ـ بجنون ـ: اغلقوا البغلة الباب وأطعموني حبتي ماء[1] ثم مضى هارباً عمى وجهه ليسابق الريح و (يخرج الريح أيضاً) كما يقول صاحب مقاتل الطالبيين!!. واجتمع الناس في المسجد وقام الحسين فيهم خطيباً بعد فراغه من الصلاة فحمد

(١) لا يخفى أن الكلمات لم تكن تخرج صحيحة، وذلك من الدهشة والخوف ولقد خلف هذا الموقف له ولذريته ذكراً سيئاً حيث أن ولده أصبحوا يعرفون ببني حبتي ماء!! .

الله وأثنى عليه وقال:

أنا ابن رسول الله على منبر رسول الله في حرم رسول الله أدعوكم إلى سنّة رسول الله:

أيها الناس: أتطلبون آثار رسول الله في الحجم والعود وتتمسحون بذلك وتضيعون بضعة منه؟!.

كان رد فعل السلطة سريعاً، فقد تحركت حاميه مسلحة للسلطة بقيادة خالد البربري وكانت في المدينة، فتصدى لها يحيى بن عبد الله وضرب قائدها على جبينه وعليه البيضة والمغفر والقلنسوة فقطع كل ذلك وأطار قحف رأسه وسقط عن دابته وانهزم أصحابه. وبايع الناس بعدها «على كتاب الله وسنّة رسول الله وعلى أن يطاع الله ولا يعصى وأدعوكم إلى الرضا من آل محمد وعلى أن نعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى العدل في الرعية والقسم بالسوية وعلى أن تقيموا معنا وتجاهدوا عدونا فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا وإن نحن لم نف لكم فلا بيعة لنا عليكم».

وبعد أن استتب الأمر للحسين في المدينة ولاها ديناراً الخزاعي وخرج مع ثلاثمائة من أصحابه وأهله قاصدين مكة المكرمة، فلما قربوا منها تلقتهم جيوش بني العباس (المسودة).

ولم تنفع أحاديث الحسين معهم في تغيير موقفهم، ولا مشاهدة قوادهم لسلامة الخط الذي يسير فيه الثائرون.. فقد أراد قائد الجيش العباسي (موسى بن عيسى) استطلاع معسكر الحسين فقال لأحد أصحابه: اذهب إلى عسكر الحسين حتى تراه وتخبرني بكل ما رأيت، قال أبو العرجاء الجمال: فمضيت فدرت فما رأيت خللاً ولا فللاً ولا رأيت إلا مصلياً أو مبتهلاً أو ناظراً في مصحف أو معدّاً للسلاح، فجئت موسى ابن عيسى فقلت له: ما أظن القوم إلاّ منصورين.

فقال: وكيف ذلك يا ابن الفاعلة؟.

فأخبرته بما رأيت فضرب يداً على يد وبكى حتى ظننت أنه سينصرف!.

ثم قال: هم والله أكرم عند الله وأحق بما في أيدينا منا،

ولكن الملك عقيم ولو أن صاحب القبر ـ يعني النبي ـ نازعنا ضربنا خشومه بالسيف، يا غلام اضرب بطبلك!!.

لقد كان موسى بن عيسى يفلسف حركة خط الخلافة منذ بدايته، ويعي بعمق أن خط الإمامة أكرم عند الله وأحق بالقيادة، ولكن الملك عقيم!! ولكي يصفع الأغبياء والبلهاء الذين يبررون هذه الجرائم بالاجتهاد الذي يثابون عليه!!.

وهكذا ضرب الطبل وما هي إلاّ ساعات حتى احتوش آلاف من الجنود الذين لا وعي لهم عشرات أصحاب البصائر.. وغلبت الكثرةُ الشجاعةَ.. وأرسلت شمس الأصيل أشعتها صباح يوم التروية الثامن من ذي الحجة الحرام عام ١٦٩ هـ، لتصافح تلك الأجساد الطاهرة، والجثث الزاكية. وتأخذ من أنوارها نوراً. وبقيت تلك الأجساد ثلاثة أيام لم توار ولم تدفن[١].. وهكذا عادت كربلاء.. وحملت الرؤوس: وكانت مائة رأس إلى (خليفة المسلمين) الذي يشرفه الانتماء

(١) مروج الذهب ٣/ ٣٣٦.

لرسالة الرسول بينما يقتل أولاده وجيء بالأسرى فأمر موسى الهادي العباسي بضرب أعناقهم جميعاً.

وانتهت المعركة، ومرت الأيام، وامحّت المعالم، ومات المنتصر فيها، وهلك الخليفة العباسي وذكره إلاّ من صحائف العار واللعنة، وبقيت كلمات مضيئة تؤرخ الحادثة فتفضح خط القتلة وتخلد ذكر الثائرين، تلك كلمات الإمام موسى الكاظم عليه السلام الذي أخبر الحسين قبل خروجه بطبيعة من يقاتله فقال:

«إنك مقتول فأحدّ الضراب فإن القوم فساق يظهرون إيمانا ويضمرون نفاقاً وشركاً، فإنا لله و إنا إليه راجعون، وعند الله أحتسبكم من عصبة.

ومرة أخرى يؤبّن الإمام الكاظم عليه السلام تلك الباقة العطرة من الثائرين بقوله: لما رأى رأس شهيد فخ الحسين ابن علي في مجلس موسى بن عيسى القائد العباسي:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله مسلماً صالحاً صواماً

قواماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله»[١].

مضوا قاهرين لأعدائهم، رافضين الذل، سالكين درب العزة حتى لقوا جدهم رسول الله، أما قاتلهم فإنه لم ينل سوى جزاء سنّمار من الخليفة، وسوى لعنة التاريخ ولعلّه كان يتنبأ بذلك فقد كان يلقن الشهادتين عندما حضرته الوفاة لكنه كان يقول ـ دائماً:-

ألا ليت أمي لم تلدني ولم أكن

لقيت حسيناً يوم فخ ولا الحسن

بينما كان ثوار فخ، يتقلبون على أرائك الخلود في نعيم الله المقيم، ورضوانه العظيم، ولم يخسروا من الدنيا غير همّ القلب، وحزن النفس، وبقي لهم فيها الثناء الممتد. كما قال بعض من رثاهم:

---

(١)مقاتل الطالبيين ٣٠٢.

فلأبكينّ على الحسين بعولة وعلى الحسن

وعلى ابن عاتكة الذي أثووه ليس له كفن

تركوا بفخ غدوة في غير منزلة الوطن

كانوا كراماً قُتّلوا لا طائشين ولا جُبُن

غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن

هُدي العباد بجدهم فلهم على الناس المنن

الخليل بن أحمد الفراهيدي

١٠١ ـ ١٧٥ هـ

إنه الآن في سوق الصفارين، والمطارق تهوي بقوة على النحاس لكي تحيله إلى صفائح، وإلى قدور وغيرها.. والعقل العجيب الذي يحمله الخليل يتوقد وينتقل في سرعة ضوئية من المطارق تلك إلى نظمها وإيقاعها، ومنه إلى اللغة والشعر ويغيب عما حوله، سوى تلك الطرقات والانتقالات السريعة، حتى وصل إلى المنزل. وهناك وضع أوزان الشعر العربي.

لقد ذهب إلى مكة المكرمة حاجاً وهناك دعى الله أن يرزقه علماً لم يسبق به، ولما عاد فتح الله عليه علم العروض حتى أصبح مؤسسه بل اشتهر به في لقبه فقيل الخليل الفراهيدي (العروضي).

وإذا فهم البعض التشيع جهاداً وثورة ـ وكانوا على حق

في ذلك، فقد فهم التشيع علماً وعزة، ونشاطاً عقلياً، وبناء فكرياً، ولقد ساعده في ذلك عقل ذكي لا تزيده كثرة التفكير إلاّ نشاطاً، وزيادة النشاط إلاّ إبداعاً. وانقطع للعلم والمعرفة تاركاً متع الدنيا لأهلها، ومنصرفاً عن التكسب بعلمه كما كان دأب الكثيرين.

عزة نفسه تلك جعلته يترفع على ذلّة التكسب والارتزاق والجري وراء أصحاب الملك والمال بل يرفضهم إذا طلبوه، فقد وجه إليه سليمان بن حبيب المهلبي والي الأهواز برسول يستدعيه من البصرة ليؤدب أولاده وكان هذا يعنى خروج المؤدب من زوايا الخمول إلى ذرى الشهرة ومن حضيض الفقر والفاقة إلى أعالي الغنى، الأمر الذي يطمح فيه ـ عادة ـ الكثير، بل ربما تعلم بعضهم العلم لهذه الغاية، يتقربون بها إلى الخلفاء، ويسيرون بها في ركاب الأمراء..

وجاء الرسول ودخل بيت الخليل الذي يحتقره الكوخ، وأبلغه الرسالة فأخرج الخليل خبزاً يابساً وقال: ما دمت أجد

هذا فلا حاجة لي إلى سليمان.. مشابهاً في فعله هـذا فعـل أبي ذر الغفاري عندما أرسل إليه الخليفة مالاً.

وكان الرسول لم يفهم هذه الإشارة فسأل الخليل:

ـ فما أبلغه عنك؟!.

فقال:

أبلـغ سـليمان أني عنـه في سـعة

وفي غنى غـير أني لـست ذا مـال

شـحاً بنفـسي أني لا أرى أحـداً

يموت هزلاً ولا يبقى على حـال

فالرزق عن قدر لا العجز ينقـصه

ولا يزيـدك فيـه حـول محتـال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه

ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

لقد كان يملك نفساً غنية لا تطمع إلى ما لا تملك، ويجد عنده ثروة كبيرة بعلمه لذلك لم يسترزق بعلمه. فلما رجع الرسول إلى سليمان غضب هذا.. وقطع راتب الخليل وكان يظن أنه يصنع بذلك عنصر ضغط على الخليل لكي يستجيب، إلا أنه أرسل له بيتين من الشعر يوضح موقفه بعد هذا:

إن الذي شق فمي كافل   للرزق حتى يتوفاني

حرمتني مالا قليلاً فما   زادك في مالك حرماني

فلما بلغت سليمان كتب إليه يعتذر منه عما حدث من قطع الراتب وأضعفه له، ولم تلق هذه البادرة من الخليل إلاّ ما لقيت أختها، ذلك أن النفس العزيزة التي يحملها بين جنبيه لم تكن لتتنازل لا للترهيب ولا للترغيب، فقال الخليل:

وزلة يكثر الشيطان إن ذكرت

منها التعجب جاءت من سليمانا

لا تعجبن لخير زل عن يده

فالكواكب النحس يسقي الأرض أحياناً[1]

وفيما كان غيره يتاجرون بما كان قد صنفه وكتبه، ويجمعون أموال الأمراء، كان يعيش حياة من وجد حياته في عمله وراحته في إبداعه، فأوقف همه عليه، ولم يترك لدنياه هماً. وكما قال النضر: كان الخليل أشعث الرأس شاحب اللون شعث الهيئة منخرق الثياب منقطع القدمين، مغموراً في الناس لا يُعرف.

لكنه كان واحد عصره، فقد أقدم على ابتكار علم العروض، لا عن كتاب كان قبله ولا عن منهاج، وبذلك صان اللغة و آدابها، والشعر العربي عن الاندراس، قال حمزة بن الحسن الأصفهاني: «إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول، من الخليل وليس على

---

(١) أعيان الشيعة ٦/ ٣٣٨.

ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه ولا عن مثال تقدمه احتذاه وإنما اخترعه من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتهما أو يفسران غير جوهرها فلو كانت أيامه قديمة ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره ومن تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة ثم إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام»[1].

وما ظنك بمن يفرع على طريقة الحصر العقلي حتى يتناول اثني عشر مليوناً وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة وست كلمات (١٢٣٠٥٤٠٦)، إذ أنه ألف كتابه المذكور على ترتيب الحروف إذا اجتمعت ثنائياً أو ثلاثياً أو رباعياً أو خماسياً، سواء المهمل أو المستعمل في ذلك فذكر كل ما وصل إليه علمه..

(١) الكنى والألقاب ١/ ٤٢٣.

وبالرغم من أن العرب ـ في الغالب ـ كانوا شعراء بالفطرة، إلاّ أن إيجاد نظام وميزان للشعر، يعرف به صحيحه من سقيمه، كان من صنع الخليل (العروضي) وبذلك يزن الشعر عن التميع، بإيجاد قواعد يأتي من بعده على ضوئها ليقيس صحة هذا الشعر أو سقمه. وسمى تلك الموازين بحور الشعر وأوزانه.

ولنأت بها زيادة في تعريف القارئ بهذا العبقري المؤمن، وقد نظمها شاعر أهل البيت عليهم السلام صفي الدين الحلي[1]، فصدر البيت من شعره والعجز وزن ذلك البيت:

١ ـ البحر الطويل:

طويل له دون البحور فضائل

فعولُنْ مفاعيلُنْ فعولُن مفاعلُ

٢ ـ البحر المديد:

(١) المنجد في اللغة والأعلام ٣٨٩.

لمديد الشعر عندي صفات فاعلاتُنْ فاعلُنْ فاعلات

٣ ـ البحر البسيط:

إن البسيط لديه يبسط الأمل

مستفعلُنْ فاعلُنْ مستفعلُن فاعل

٤ ـ البحر الوافر:

بحور الشعر وافرها جميل مفاعَلتنْ مفاعلتن فعولُ

٥-البحر الكامل:

كمال الجمال من البحور الكامل متفاعلُنْ متفاعلُنْ متفاعلُ

٦ ـ بحر الهزج:

على الأهزاج تسهيل مفاعيلُنْ مفاعيلُ

٧ ـ بحر الرجز:

في أبحر الأرجاز بحر يسهل مستفعلُن مستفعلُن مستفعلُ

٨ ـ بحر الرمل:

رمل الأبحر ترويه الثقاة   فاعلاتُن فاعلاتُن فاعلاتُ

٩ ـ بحر السريع:

بحرسريع ما له ساحل   مستفعلُنْ مستفعلُنْ فاعلُ

١٠ ـ البحر المنسرح:

منسرح فيه يضرب المثل   مستفعلُن مفعولاتُ مفتعـلُ

١١ ـ البحر الخفيف:

يا خفيف خفت به الحركات   فاعلاتن مستفعِلُنْ فاعلات

١٢ ـ بحر المضارع:

تعد المضارعات   مفاعيل فاعلات

١٣ ـ بحر المقتضب:

اقتضب كلما سألوا   فاعلات مفتعل

١٤ ـ بحر المجتث:

إن جثت الحركات مستفعلن فاعلات

١٥ ـ البحر المتقارب:

عن المتقارب قال الخليل فعولن فعولن فعولن فعول

ولم يكن في ذكائه في العقائد أقل منه ذكاء في العروض، لذلك كانت أجوبته تنم عن وافر علم في هذا الجانب، فقد سأله يونس بن حبيب ا لنحوي، قال:

ـ أريد أن أسألك عن مسألة فتكتمها عليّ؟! فأجابه:

ـ قولك يدل على أن الجواب أغلظ من السؤال فتكتمه أنت أيضاً؟!

فقال يونس:

ـ نعم، أيام حياتك.. وأضاف: ما بال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأنهم كلهم بنو أب واحد وأم واحدة وعلي من بينهم كأنه ابن علة (ضرة).

فقال الخليل: من أين لي بالجواب؟! ولعلّه لما كـان يعـيش في البصرة كان يتقي أهلها خصوصاً في ذلك الزمن العـصيب، الذي كان الحديث فيه عن فضائل أمير المؤمنين يعد جريمـة... لذلك أراد التنـصل عـن الإجابـة، إلاّ أن يـونس قـال لـه: قـد وعدتنيه.

قال الخليل: وقد ضمنت لي الكـتمان، فقـال يـونس: نعـم أيام حياتك.

فانطلق الخليل يتحدث قائلاً:

ـ إن علياً تقـدمهم إسـلاماً وفـاقهم علـماً وبـذهم شرفـاً ورجـح علـيهم زهـداً وطـالهم جهـاداً والنـاس إلى أشـكالهم وأشباههم أميل منهم إلى من بـان عـنهم. وقـد مـر شـبيه هـذا القول منه لأبي زيد النحوي الأنصاري عندما سأله:

ـ لم ترك الناس علياً وقربه من رسـول الله قربـه وموضـعه منه موضعه وغناؤه في الإسلام غناؤه (أي لا ينكـر ذلـك كلـه ولا يحتاج إلى تعريف).

فأجابه: بهر والله نوره أنوارهم وغلبهم على صفو كل منهم والناس إلى شكلهم أميل. أما سمعت قول القائل..

وكل شكل لشكله ألف　　　　أما ترى الفيل يألف الفيلا؟!

وأُثر عنه قوله في أمير المؤمنين عليه السلام:

ـ استغناؤه عن الكل واحتياج الكل إليه دليل على أنه إمام الكل.

وإضافة إلى أقواله المتفرقة هذه فله كتاب في الإمامة، أورده بتمامه محمد بن جعفر المراغي في كتابه واستدرك ما أغفله الخليل من الأدلة وسماه كتاب الخليلي في الإمامة[1].

---

(١) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ١٤٩.

علي بن يقطين البغدادي

١٢٤ـ ١٨٢

«إن لله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه وأنت منهم يا علي»

موسى بن جعفر عليه السلام

ـ ما كان سبب زوال ملككم؟!.

ـ إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منّا.

❁ وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنّا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا.

❁ ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً دوننا أخفوا عملنا عنّا.

❁ وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا.

❁ وكان استتار الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال ملكنا(١).

وهكذا لم تنفع جهود مروان الذي كان يلقب بالحمار لصبره وشدته، ولا المنشطات التي أعطاها في إعادة الروح إلى الجسد الأموي الميت، وبالرغم من ازدياد القمع وكثرة الاعتقالات في صفوف المعارضين، فلم يكن ذلك ليمنع الانهيار..

وكان يقطين والد علي من دعاة العباسيين، وطلب في الكوفة وكان عمر علي حينها ثلاث سنوات عندما قررت الحكومة الأموية، مطاردة رجال المعارضة سواء الثوار العلويين أو الدعاة العباسيين، وهكذا اختفى والده بينما هربت

---

(١)مروج الذهب ٣/ ٢٤١.

أمه به وبأخيه من الكوفة إلى المدينة المنورة عام ١٢٧ هـ.

وبعد خمس سنوات، أكملت الدولة الأموية ألف شهر من عمرها البغيض ولم يبق لها ما تنتظر بعد أن رتع فيها حكامها كما ذكر آنفاً عن أحد شيوخ بني أمية، وقد سئل عن سبب زوال ملكهم.

ـ جاء العباسيون.. وتولى أبو العباس السفاح «خلافة «المسلمين، وأصبح يقطين الداعي ـ سابقاً ـ وزير البلاط حالياً. ولم يكن يخفي اتجاهه الفكري والعقيدي في مسألة الإمامة والتشيع، بل لم يكن ذلك الانفصال الكبير قد حدث بين العلويين والعباسيين بفعل قمع هؤلاء في الأخير.

كان لا يزال العباسيون يعيشون ـ ولو ظاهراً ـ أجواء (الرضا من آل محمد) ولم يبدؤوا في تصفية العلويين، وشيعتهم، لذلك كان يقطين ومن بعد ابنه علي في البلاط العباسي.

هكذا وجد علي بن يقطين طريقه إلى الوزارة أيام هارون

الرشيد (!)، وإذا كان الأمر متداخلاً في أيام السفاح وشطراً من أيام المنصور الأولى، فالكل يرفع الراية العلوية والانتماء إلى النبي فإن شهور العسل تلك لم تلبث أن تحولت إلى علقم وسجون ومصادرات وخصوصاً في أيام هارون حيث ينقل لنا حميد بن قحطبة الطائي صورة عن وضع العلويين أيام هارون، فلنستمع إلى هذا الحديث لنرى حراجة موقف علي بن يقطين. فقد قال عبيد الله البزاز النيسابوري:

كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة فرحلت إليه في بعض الأيام فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعليّ ثياب السفر لم أغيرها وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر.

فلما دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه الماء فسلمت عليه وجلسنا فأتى بطشت وإبريق فغسّل يديه ثم أمرني فغسلت يدي وأحضرت المائدة وذهب عني أني صائم وأني في شهر رمضان، ثم ذكرت فأمسكت يدي، فقال لي حميد: مالك لا

تأكل؟! فقلت: أيها الأمير هذا شهر رمضان ولست بمريض ولا بي علة توجب الإفطار، ولعلّ الأمير له عذر في ذلك أو علة توجب الإفطار..

فقال: ما بي علة توجب الإفطار، وإني لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى.

فقلت له بعدما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيها الأمير؟!.

فقال: أنفذ إلي هارون الرشيد وقت كونه بطوس، في بعض الليل أن أجب.. فلما دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتقد وسيفاً أخضر مسلولاً وبين يديه خادم واقف فلما قمت بين يديه رفع رأسه إليّ وقال:

ـ كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟! فقلت:

ـ بالنفس والمال..

فأطرق ثم أذن لي في الانصراف. فلم ألبث في منزلي حتى عاد الرسول إليّ وقال أجب أمير المؤمنين. فقلت في نفسي: إنا لله أخاف أن يكون قد عزم على قتلي وأنه لما رآني استحيا مني،

فعدت إلى بين يديه فرفع رأسه وقال:

ـ كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟! فقلت:

ـ بالنفس والمال والأهل والولد، فتبسم ضاحكاً ثم أذن لي في الانصراف.

فلما دخلت إلى منزلي لم ألبث أن عاد الرسول إليّ فقال: أجب أمير المؤمنين. فحضرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه إليّ فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟!.

قلت: بالنفس والمال والأهل والولد والدين!! فضحك، ثم قال لي: خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم.

فتناول السيف الخادم وناولنيه وجاء بي إلى بيت بابه مغلق ففتحه فإذا فيه بئر في وسطه وثلاثة بيوت أبوابها مغلقة ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشبان مقيدون. فقال: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلهم علوية من ولد علي وفاطمة فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد فأضرب عنقه حتى أتيت على

آخرهم ثم رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر.

ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه عشرون نفساً من العلوية من ولد علي وفاطمة مقيدون، فقال: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر، حتى أتيت على آخرهم. ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد علي وفاطمة مقيدون عليهم الشعور والذوائب فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تقتل هؤلاء أيضاً، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر حتى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي: تبّاً لك يا مشؤوم أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم علي وفاطمة عليهما السلام؟!.

فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي فنظر إلي الخادم مغضباً وزبرني، فأتيت على ذلك الشيخ ورمى به في تلك البئر، فإذا

فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله فـما ينفعنـي صومي وصلاتي وأنا لا أشك أني مخلد في النار[1].

---

(١)عيون أخبار الرضا ٢/ ٩٩ .. ونذكّر هنا ـ كما فعل آخرون ـ إلى أن هناك اشتباها في النقل كما يبدو ، وأن القصة لو حدثت فلا بد أن تكون قبل زمن هارون الرشيد أي إما أن تكون في زمان المهدي أو أبيه المنصور ، فإن حميد بن قحطبة كان من أعوان العباسيين من أيام أبي العباس السفاح ثم المنصور وبعده المهدي ، لكنه لم يدرك حكومة الهادي ولا الرشيد ، فإن حميدا هذا قد هلك في سنة (١٥٩) هـ وهو وال على خراسان كما صرح بذلك الطبري ، بينما هلك المنصور سنة ١٥٨ هـ وتولى بعده ابنه المهدي . ومما يؤيد وقوعها في زمن المهدي أنه كان شديد الوطأة على العلويين وأنه أمر حميد بن قحطبة بقتل الإمام الكاظم كما ينقل ذلك ابن شهراشوب في مناقب آل أبي طالب . وأنه تسلم من أبيه المنصور طريقة حكمه بالنحو الذي نقله الطبري وغيره قال : تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٤٣ :

لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبى العباس امرأة المهدي وكان المهدي بالري قبل شخوص أبي جعفر فأوصاها بما أراد وعهد إليها ودفع إليها مفاتيح الخزائن وتقدم إليها وأحلفها ووكد الأيمان لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحدا إلا المهدي ولا هي إلا أن يصح عندها موته فإذا صح ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة فلما قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح وأخبرته عن المنصور أنه تقدم إليها فيه ألا يفتحه ولا

وكما انتهت شهور العسل تلك إلى سنين الدماء، فقد كـان لزاماً على الجميع والوضع كذلك أن يحددوا مواقفهم السياسية فضلاً عن الدينية والعقيدية.

ووجد علي نفسه أمـام تحـديين خطـيرين، فهـو ببقائـه في بلاط هارون سيكون شريكاً في الدماء العلوية التي تسفك على مذبح الإصلاح، وسيفاً في يد الحكم العباسي عليهم، وإن تـرك هـذا الموقـع فهـذا يعنـي تحويلـه إلى المعارضـة في نظـر الحكـم العباسي الذي لا يرحم إذا وصل الأمر إلى المعارضة السياسية، لقد ذبح المنصور بيده أقرب أعوانه والمؤسس الحقيقـي لدولـة العباسين أبا مسلم الخراساني لأنه «شم«منـه رائحـة المعارضـة والمنافسة.

يطلع عليه أحدا حتى يصح عندها موته فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور وولى الخلافة فتح الباب ومعه ريطة فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها .

فماذا يصنع؟!.

لقد كان يفكر أياماً وليالي، وتنازع في قلبه الدين والـدنيا.. فمن جهة قد يفقد دينه ومن أخرى قد يفقد رأسه..

وحسم الأمر.. فماذا ينفعه موقفه في البلاط، ودنياه لو قدم على الله يوم القيامة ويده ملوثة بالإعانة على أهل بيت النبـي؟! و إذا كان التقية دينه ودين أئمته فإنها في كـل شيء حتـى تـصل إلى الدماء فلا تقية، ولـذلك كتـب لقائـده وإمامـه موسـى بـن جعفر (الكـاظم) ليـستأذنه في الاسـتقالة مـن عملهـم لأنـه لا يستطيع أن يرى تلك المظالم، بل يخشى أن يكون شريكـاً فيهـا، بصرف موقعه في الحكم.

وجاء الجواب له من الإمام، حاسماً بـالرفض، وهاديـاً إلى الطريق الأمثل: «لا تفعل فإن لنا بك أنساً، ولإخوانك بك عزاً وعسى الله أن يجبر لك كيداً أو يكد بـك نـائرة المخـالفين عـن أوليائه، يا علي كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم..

اضمن لي واحدة، أضمن لك ثلاثاً، اضمن لي أن لا تلقـى

أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته. وأضـمن لـك أن لا ينالك سقف سجن أبـداً ولا ينالـك حـد الـسيف أبـداً ولا يدخل الفقر بيتك أبدا.

يا علي من سر مؤمنا فبالله بدأ وبالنبي ثنّى وبنا ثلّث»[1].

وامتلأ علي غبطة بهذا الجـواب، فقـد أخرجـه مـن مـأزق عظـيم، أخرجـه مـن مـأزق الـشرعية، فهـو يـستطيع الآن أن يطمئن كمال الاطمئنان إلى أن عمله الذي يقوم به وهو في قصر هارون، عبادة لا تقل عن سائر العبادات، بعد أن أصبح برضـا الإمام المعصوم، بل وبأمره به، وإضافة إلى ذلك فقد ضـمن لـه الإمام دنياه، وأنه لن يـصاب بـالبلاء، وعـليٌّ شـديد الاعتقـاد بكلام إمامه.

بقي أن يضمن تلك الواحدة وهي قـضاء حـوائج أوليـاء الإمام وشيعته. فلننظر كيف تصرّف، وكيـف أكمـل المهمـة؟! خـصوصاً إذا عرفنـا أن بعـض الثـوريين لا يـستطيعون البقـاء

(١) بحار الأنوار ٤٨/ ١٣٦.

طويلاً متنكرين، بل يكتشفون بسرعة من قبل أعدائهم وهم في الخارج، فكيف إذا كان في فم السبع في بلاط الحاكم وجل يومهم ووقتهم هناك، وحركاتهم مراقبة؟ وأعمالهم محسوبة؟!
وفوق كل ذلك فإن روحهم الثورية لا تترك لهم مجالاً لأن يروا الحاكم يظلم الناس ويهتك دين الله وهم ينظرون!!.

لقد استطاع علي بن يقطين بتسديد الإمام الكاظم عليه السلام له أن ينجز الأعمال المطلوبة منه وأن يستمر في عمله، في الوقت الذي بقي فيه على عقيدته، بل وعلى دعمه للإمام مالياً، وتزويده بالأخبار والمعلومات التي تنفعه وتنفع شيعته في اتقاء مطاردة السلطات.

لكن بقي أن يحوز على الثقة المطلقة لدى البلاط، فلا يكفي أن يكون مرضياً عنه عند الإمام ليكون قادراً على إنجاز مهماته، إذ أنها ترتبط بالحكومة والبلاط، وما لم يحز على الثقة المطلقة، فإنه لن يكون قادراً.. فماذا يصنع لكي يحصل عليها؟!.

إن مثله عرضة للوشايات والسعايات سراء من قبل أعداء أهل البيت عليهم السلام حيث لن يسكنوا وهم يرون من يتبع الأئمة ويواليهم يتولى أحد أخطر المناصب في الدولة، وكذلك من قبل ذوي الطموح الشخصي والباحثين عن المال العاجل من السعاة والجواسيس.. وهذا ما حدث لعلي..

فقد أهدى الرشيد إلى علي بن يقطين ثياباً. وكانت فيها دراعة فاخرة سوداء منسوجة بالذهب يلبسها الخلفاء عادة، فلما وصلت إليه قام من فوره وأرسلها إلى الإمام، ذلك أنه كان يرسل إليه كل عام بخمس ماله، وبهدايا مختلفة فردها الإمام عليه السلام إليه وكتب له: احتفظ بها ولا تخرجها عنك فسيكون لك بها شأن تحتاج معه إليها.. ولما ردت إليه واطلع على رسالة الإمام احتفظ بها وجعلها في سفط وختم عليها وكأن الإمام كان ينظر بعين الله إلى المستقبل وما سيحدث فيه، فما إن مضت فترة من الزمن حتى تغير ابن يقطين على بعض غلمانه.. ووجد هذا الغلام الفرصة سانحة للفتك بابن

يقطين.. فما هي إلاّ ساعة حتى يذهب مخبراً هارون الرشيد عن علاقة وزيره الإمام الكاظم، وعندها سيندر رأس ابن يقطين متدحرجاً على النطع..

إن علي بن يقطين يقول بإمامة موسى الكاظم عليه السلام وأنه يحمل إليه في كل سنة زكاة أمواله والهدايا والتحف وقد حمل إليه في هذه السنة ذلك مع الدراعة السوداء التي أكرمته بها..

وسكت الغلام بينما احمرت عينا هارون من الغضب، فهذا أسوأ ما يتوقعه، أن الكاظم الذي يهدد بعلمه، وهديه، وسيرته وجود هارون، حتى ليعبر عنه بأنه «الشجى المعترض في حلقه».. ها هو يجد أنصاراً في داخل البلاط، ومثل علي ابن يقطين الوزير الأول!! يدين بإمامة الكاظم ويرسل سراً إليه بالأموال!!.

ـ لأكشفن عن ذلك فإن كان الأمر على ما ذكرت أزهقت روحه وذلك من بعض جزائه.. ردّ هارون عليه، وأرسل في الحال رسولاً إلى ابن يقطين، ولما جاء التفت إليه:

ــ مـاذا فعلـت بالدراعـة الـسوداء التـي كـسوتك بهـا وخصصتك بها من بين سائر خواصي؟!.

وأشرقت عيناه ببريق الرضا، وأثنى في باطنـه عـلى سـيده الإمام الكاظم، فلولاه لكان الآن في موقف يشفق عليه فيه:

ـ هي عندي يا أمير المـؤمنين في سـفط فيـه طيـب، مختـوم عليها.

ولما كان هـارون يحتمـل أن مـا قالـه الـساعي قـد يكـون صحيحاً وإن كـلام ابـن يقطـين قـد يكـون منـاورة.. فقـال: ـ أحضرها الساعة.

وأجاب علي: على السمع والطاعة.

ولم يغب عن ابن يقطين سوء ظن هـارون بوجودهـا فلـم يذهب للإتيان بها، بـل أعطـى أحـد خدمـه المفـاتيح وأعلمـه بموضعها وأرسله لكي يصنع اطمئناناً كاملاً بوجودها.. وعاد الخادم وفي يديه الـسفط، وفـتح الخـتم والـسفط وإذا الدراعـة مطوية على حالها لم تتغير ولم يصبها شيء..

وسكن غضب الرشيد وهدأت ثورته، وكما كان من الممكن أن لا يثبت عدم وجود الدراعة، التهمة على ابن يقطين، فقد كان وجودها نافياً للظن السيئ لدى الرشيد الذي قال:

ـ ردها إلى مكانها وخذها وانصرف راشداً فلن نصدق بعدها عليك ساعياً[1].

وخرج ابن يقطين من هذا الامتحان بتسديد الإمام له وقد تجاوز موقع الخطر، إلاّ أن السعاة لم يكونوا ليقفوا عند حدهم. ولم يكن الإمام عليه السلام ليغفل عن تسديد وليّه وتابعه، فقد كتب إليه أن يتوضأ بالطريقة التي يتوضأ بها هارون، وهي تختلف في كيفيتها عن الكيفية التي كان عليها ابن يقطين والموافقة لفقه أهل البيت.. وأخبره أنه إن توضأ على الطريقة الأولى الموافقة لفقه الأئمة، فلا صلاة له!!.

ودهش ابن يقطين، ولم يعلم السبب لكن كان لا بد أن

(١)بحار الأنوار ٤٨/ ١٣٨.

يطيع أمر قائده. وبدأ يتوضأ بالطريقة الجديدة، فيغسل وجهه ثلاث مرات، ويديه كذلك ويغسل رأسه وأذنيه ورجله!!.

في الجانب الآخر كان الوشاة، وخفافيش الليل يعبئون الجو لدى هارون الرشيد ضد ابن يقطين.. وأنه إذا أراد أن يتحقق من ذلك فليلاحظ طريقة عبادته.

وتحين هارون الفرصة، وأطل من إحدى شرفات قصره على ابن يقطين وهو يتوضأ من حيث لا يشعر به علي، ولما رآه يتوضأ كما يتوضأ هو أخرج رأسه وصاح ولم يطق صبراً: ـ لا صدقت عليك واشياُ أبداً! كذب من زعم أنك رافضي!![1].

الغريب أن علياً كما كان يتعرض للوشايات في حقه من قبل أعدائه وأعداء أهل البيت، فكذلك كان يتعرض للتهمة من قبل أفراد محسوبين على ولاء أهل البيت. ومحور الوشايات أن عليّاً يقول بإمامة موسى بن جعفر، ويرسل إليه بخمس ماله، ويدين بأوامره، بينما محور التهمة كان في الاتجاه المخالف

(١)بحار الأنوار ٤٨/ ١٣٧.

أي أنه مع العباسيين وأن ذلك يخل بموقعه في جبهة أنصار أهل البيت عليهم السلام.

وفي الواقع فإن هذا المأزق أكثر إيلاماً من السابق إذ أن الفرد المبتلى هنا، في الوقت الذي يقوم فيه بخدمة الدين وأهل الإيمان ويحتاج أن يقوم بعمليات معقدة في ذلك، إلا أنه يتهم من قبل الجمهور بأنه سلطوي، وحكومي ويعزل اجتماعياً ويسب ويشتم.

ها هو رجل من «خواص «الشيعة يأتي للإمام الكاظم عليه السلام ليمارس التهمة في حق ابن يقطين..

ـ يا ابن رسول الله.. ما أخوفني أن يكون فلان (ويقصد ابن يقطين) ينافقك في إظهاره وصيتك وإمامتك!!.

ـ وكيف ذاك؟! سأله الإمام.

ـ لأني حضرت معه اليوم في مجلس فلان ابن فلان (رجل من كبار أهل بغداد) فقال له صاحب المجلس: أنت تزعم أن موسى بن جعفر إمام دون هذا الخليفة القاعد على سريره؟!

فقال له صاحبك هذا (يقصد عليّاً) ما أقول هـذا بـل أزعـم أن موسى بن جعفر غير إمام، وإن لم أكن أعتقد أنه غير إمام فعـليّ وعلى من يعتقد ذلك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

قال صاحب المجلس: جزاك الله خـيراً ولعـن مـن وشـى بك.

فقال له موسى بن جعفر عليه السلام: لـيس كـما ظننـت ولكـن صاحبك أفقه منك، وإنما قال موسى غير إمـام، أي أنـه الـذي غير إمام فموسى غيره، فهـو إذاً إمـام فـإنما أثبـت بقولـه هـذا إمامتي ونفى إمامة غيري، يـا عبـد الله متـى يـزول عنـك هـذا الذي ظننته بأخيك؟ هذا من النفاق! تب إلى الله.

ولم تكن هذه التهم ولا تلك الوشـايات لتعيـق عليـاً عـن أداء دوره، وممارسة مهماته بعد أن ضمن لـه الإمـام عليه السلام مـا ضمن، وبعد أن رأى نفسه تحت نظر الإمام وتوجيهه الدائم.

فقد كان يزود أكثر من مائة مـن شـيعة الإمـام عليه السلام بـما يصلحهم من الزاد والنفقة إلى الحج في كل سنة، وكان ربما حمل

بين مائتين إلى ثلاثمائة ألف درهم خمس ماله للإمام في كل سنة، وكان يعلمه بما يدور في البلاط العباسي من أمور.

وفي عام ١٨٢ هـ، بعد أن قضى ثمانية وخمسين عاماً في البر، وكان مصداقاً كاملا لقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: إن لله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه وأنت منهم يا علي.. [1]

كان ترساً لشيعة أهل البيت، وممولاً لهم ولقادتهم، وواسطة سريعة لنقل ما يدور في البلاط من أمور تخصهم..

وبالرغم من خطورة الدور الذي قام به، كونه محفوفاً بالمخاطر وانكشاف الهوية، إلا أنه لم يظله سقف سجن، ولم يدخل الفقر بيته، ولم ينله حد السيف!.

---

(١) تنقيح المقال ٢/ ٣١٦.

نساء حول الإمام الكاظم عليه السلام

نفيسة بنت الحسن بن زيد

ابن الحسن السبط عليه السلام

توفيت في مصر سنة ٢٠٨ هـ

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

سورة الأنعام آية ١٢٧

أهل البيت برَكة شاملة، ومودتهم خير لمن ﴿ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾، الأئمة منهم طرق الإله إلى الجنة، والوسيلة إلى الرحمة.. وغير الأئمة علماء ربانيون ينهلون من معين العلم الإلهي، وينشرونه بين الناس نورا وهداية..

وهذا هو واحد من الأسباب التي جعلت أعداءهم ﴿ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ولا ذنب لهم في ذلك ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[1]. ولهذه

(١)سورة النساء آية ٥٤.

الجهة كانت وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته بإتباعهم واقتفاء أثرهم كما هو مفاد حديث الثقلين المعروف بين الفريقين.

ولا يقتصر هذا الأمر على الرجال وإن كانوا في الطليعة، بل وجدنا نساء أهل البيت عليهم السلام بعد أن نهلن من علم جدهن رسول الله وأبيهن أمير المؤمنين صرن منارات علم، وهداية لصنفهن.. فهذه مفسرة للقرآن وتلك راوية حديث والأخرى مقتداة عمل ومدرسة سلوك وعرفان إلهي.

وأمامنا من النماذج: نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن المجتبى عليه السلام..فهذه العلوية تمثلت طريقة أجدادها الطاهرين في عبادة ربها حتى غدت مدرسة في ذلك. ولنر ما يقوله التاريخ عنها..

في مدينة جدها الرسول تزوجت، بإسحاق بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ذلك العالم الخبير الثقة عند العامة والخاصة.. فنحن نرى ابن كاسب إذا حدث عنه ـ وقد كان إسحاق كثير الرواية عن آبائه ـ يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر.

وعندما اضطربت أمور البعض بعد الإمام الصادق عليه السلام، فشرّق بعضهم واتخذ طريق الإسماعيلية، وجعلوا الإمامة في غير موضعها، وغرب آخرون باتجاه عبد الله الأفطح قام إسحاق ـ مع جلالة قدره وتفوقه علما وعملا على من ذكر ـ بتأكيد أن الإمامة هي في أخيه موسى الكاظم عليه السلام، ودعا الناس إليه، مع أنه لو دعا لنفسه لم يعدم الأنصار، ولكنه مسؤولية حماية خط الإمامة وحفظ تراث رسول الله في هداية الأمة، فها هو يحدث بما رآه قائلا: كنت عند أبي يوما فسأله عمر بن علي: جعلت فداك إلى من نفزع ويفزع الناس بعدك فقال: إلى صاحب الثوبين الأصفرين والغديرتين ـ يعني الذؤابتين ـ وهو الطالع علينا من هذا الباب، يفتح الباب بيديه جميعا، فما لبثنا أن طلعت علينا كفان آخذة بالبابين ففتحهما ثم دخل علينا أبو إبراهيم[1].

---

(١)الكافي ١/ ح ٥ من أبواب النص على أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام.

ففـي تلـك الغمـرات التـي ضـل فيهـا بعـض واتبعـوا أهواءهم بغير علم نجد هذا العالم الفقيه الذي (كان مـن أهـل الفضل والصلاح والورع والاجتهـاد، وقـد روى عنـه النـاس الحديث والآثار) يقف موقفا واضحا، ويـدعو النـاس لإمامـة من أوجب الله إمامته، بل نجد أن عليا بن جعفر الصادق عليه السلام وهو من هو في العلم، والمعرفة بروايات أهل البيت كان يعتنـي بشأنه ويستند إلى أفعاله.

كما أنه كان مـن شـهود الإمـام الكـاظم عليه السلام في وصـيته للإمام الرضا عليه السلام، فكان ذلك إعلانا للحـرب عـلى الواقفـة الذين زين لهـم الـشيطان أعمالهـم، وحليـت الـدنيا في أعيـنهم وأرادوا الاسـتحواذ عــلى مــا لــديهم مــن أمــوال الإمــام الكاظم عليه السلام فأعلنوا أنه لم يمت وأنـه لا وصي لـه، ولا إمامـة لعلي الرضا بالتالي، فكان موقـف إسـحاق وهـو مـن ذكرنـا في العلم والمنزلة، ومن حيـث النـسب يكـون عـم الرضـا عليه السلام، وأكبر منه سنا.. ومع ذلك فقد أشار إليه..مما كان له أبلغ الأثـر

في خمود نار الواقفة. كما أنه انتصر للإمام الرضا عليه السلام عندما أراد أحد إخوته المسمى بالعباس أن يفض كتاب أبيهم الذي أوصى بعدم فتحه و(من فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) بزعم أن أباهم قد خلف كنزا وأن الرضا يريد أن يحجبه عنهم!! فقام إليه إسحاق بن جعفر عمه وأخذ بتلابيبه قائلا: إنك لسفيه ضعيف أحمق[1]!

كما أنه روى حديث المعراج الذي ورد فيه النص على جميع الأئمة بأسمائهم كما أورده الخزاز القمي في كفاية الأثر. ولذلك لا غرابة أن عرف بلقب (المؤتمن) فطابق الاسم المسمى وأي أمانة أعظم من أمانة الإمامة والحق وإيصال ما يعرف إلى من جهل من الناس؟

هذا هو زوجها رضوان الله عليه، والذي سافر بها بعد مدة إلى مصر.

ونحن لا نعرف السبب الذي دعا إسحاق وزوجته

(١)الكافي ١/ ح ١٥ من أبواب النص على أبي الحسن علي الرضا عليه السلام

للخروج من مدينة جده المصطفى مهاجرا إلى مصر ليبقى فيها، وهل أن مرد ذلك إلى الأوضاع السياسية التي عاصرها في زمان المنصور العباسي الذي كانت علاقته متوترة بآل البيت عليهم السلام، فقام بأعمال انتقامية كثيرة تجاههم، ليس أدناها اغتيال والده الإمام الصادق عليه السلام، أو تصفية أبناء عمها محمد وعبدالله وغيرهما من الحسنيين والحسينيين، مما ذكر في كتب المقاتل. وذلك أن عددا غير قليل من العلويين قد تفرقوا في البلاد بعيدا عن أنظار السلطات الظالمة، مجتنبين دائرة الضوء. أو أن ذلك كان بدافع نشر فكر أهل البيت وتعاليمهم في البلاد المختلفة. أو الأمرين معا.. إلا أننا نعلم أن تلك الهجرة كان لها فوائد كثيرة بالنسبة إلى المصريين وعلاقتهم بأهل البيت.

جاءت نفيسة العابدة التي خطت لأهل مصر طريقا في المعاني الروحية المتصلة بالدور الاجتماعي، والعلمي.. ذلك أنه قد حدث الانفصال بين العلم والعرفان، وبين المعرفة والتوجه الروحاني، فحصل في الأمة صنفان: صنف يتخذ طريق

العرفان، والسلوك، وتهذيب النفس، والاتصال بالخالق لكنه لا يعتني بالعلم، وصنف آخر عالم ولكنه غير سالك إلى الله، ولا يهتم بالأمر الروحي، ولا بالدعاء والتوسل.. وكانت النتيجة في بعض الحالات مدمرة، كما في الحديث الشريف «قصم ظهري اثنان: جاهل متنسك وعالم متهتك» فالجاهل المتنسك أعطى صورة غير طيبة لأثر الأمور الروحية سيما عندما تقترن أعماله تلك بالدروشة والممارسات الخاطئة البعيدة عن روح الشريعة.. والعالم المتهتك استفادت منه السلطات السياسية الجائرة في قمع مخالفيها، وإصدار الفتاوى المنحرفة لإدانتهم وإعدامهم، وهكذا نحر الدين بين خرقة الصوفي التي خرقت إهاب الدين وثيابه، وبين فتوى العالم المنحرف، وعلمه الذي لا ينفعه فكيف ينفع غيره؟

جاءت نفيسة بأنفس هدية إلى أهل مصر لتصالح بين الاتجاهين، فتكمل علم العلماء بعبادة الزهاد حتى لا يذبح الثائرون بسيف فتاواهم، وتصحح عبادة الزهاد والسالكين

بضياء والوعي والمعرفة، فإن العبد يثاب في عبادته على قدر معرفته.. ولتعطي لأولئك العباد دورا في الحركة الاجتماعية إذ أن الدين الإسلامي ليس طقوسا عبادية فقط، وإنما هو إضافة إلى ذلك نهضة حضارية، وحركة تنموية للعقل والمجتمع.

جاءت للفقراء والزمنى بمال كثير وبدأت تنفق عليهم، بينما كانت أموال الخلافة تسفك على أقدام الغواني والأغاني والشعراء الذين يتبعهم الخلفاء الغاوون، والذين لا ينتجون شيئا للمجتمع، بل يقولون ما لا يفعلون.

جاءت ومعها مخزون علمي كبير ورثته من أجدادها، فوجد العلماء في ذلك ضالتهم، وبدؤوا يتسابقون إلى الوفود عليها والانتهال من علمها، فكان ممن وفد عليها إمام المذهب الشافعي محمد بن ادريس الذي قدم إلى مصر قبل وفاتها بتسع سنوات، وكان يكثر التردد عليها، ويحتمل أن يكون الموقف المأثور عن الإمام الشافعي بالنسبة إلى أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وبالنسبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وما نقل عنه من

الشعر في هذا الباب مثل قوله:

يا آل بيت رسـول الله حـبكم

فرض من الله في القـرآن أنزلـه

كفاكم من عظيم الشأن أنكم

من لم يصل عليكم لا صلاة له

أو الشعر المنسوب إليه:

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الـثقلان أني رافـضي

نحتمل أن تأثر أفكار الشافعي بهذا المنحى كان له أسـباب مختلفة، من بينها تلقيـه مـن الـسيد العلويـة نفيـسة طيلـة فـترة إقامته في مصر..

وهذا بدوره جعل أهل مصر والذين انتشر فـيهم المـذهب الشافعي، من المحبين لأهل البيت عليهم السلام، ويظهر ذلك جليـا في إعمارهم قبـور أهـل البيـت وتوسـلهم بهـم، ومظـاهر المحبـة الأخرى ما لا نجده إلا عند شيعة أهل البيت من الإمامية.

وكما كانت تعطر الأجواء بنور العلم والمعرفة الموروثة من أسلافها، فقد كانت تعبد الله بنحو يشير إليه ما كشف عنه من ممارساتها العبادية مع أن أمر العبادة في أكثره لا يُكشف ولا يعرف، ولا يتحدث عنه أصحابه المخلصين في عبادة ربهم، لكن ما رشح من ذلك يشير إلى انقطاعها إلى خالقها، فقد نقل المؤرخون أنها حفرت قبرها بيدها وكانت تنزل وتصلي فيه وتقرأ القرآن، وختمته فيه مئات المرات..

ولعلك تعلم عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة ما لهذا العمل من أثر تربوي عظيم في نفس الإنسان، فإن مشكلة المشاكل لدى الإنسان هي الغفلة، وانقطاعه إلى الدنيا وتردده في أمورها وشهوات نفسه فيها، فيكون كالحيوان يعلف ويسمن ويقاتل على الطعام والشراب، بينما جزار الموت بانتظاره فلا ينتبه إلا وقد انتقل و (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)..وما نفع الانتباه حينئذ؟ وما فائدة الالتفات؟

في شهر رمضان المبارك في سنة ثمان ومائتين، احتضرت وهي صائمة.. فألزموها بأن تفطر وأكثروا عليها في ذلك..فقالت: واعجبا إني منذ ثلاثين سنة أسأل الله أن ألقاه

وأنا صائمة..أفطر الآن؟ هذا لا يكون. ثم بدأت تقرأ سورة الأنعام[١]، فلما وصلت إلى قوله تعالى ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أغمضت عينيها ورحلت إلى دار السلام.

كان إسحاق بن الإمام الصادق عليه السلام يريد أن ينقلها إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تدفن إلى جانب أمهاتها وآبائها، حيث يمكن حينئذ قراءة القرآن عند قبرها، ولكن أهل مصر طلبوا منه أن يبقيها عندهم، وبذلوا له في مقابل ذلك أموالا كثيرة.. فلم يرض بذلك، لكنه تراجع في اليوم الثاني عما أراد، وذلك لأنه كما نقل عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وهو يقول له: يا إسحاق لا تعارض أهل مصر في نفيسة فإن الرحمة تنزل عليهم ببركتها[٢].

وكان أن بقي قبر السيدة نفيسة محطة لذوي الحاجات،

---

(١)في حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أنزلت علي الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأها صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من الأنعام يوما وليلة .

(٢)سفينة البحار ج ٨ مادة نفس

ومكانا يتقرب فيه المؤمنون إلى الله، ومزار محبة تهفو إليه قلـوب محبي أهل البيت، وأوليائهم، ونقطة دفع للبلاء عن أهـل تلـك المنطقة..

أما قلنا في البداية أن أهل البيت بركة شاملة؟؟

أم أحمد بن موسى

زوجة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام

كانت موجودة حتى سنة ١٨٣ هـ

هناك صورة للمرأة شكلتها الذهنية العامة، ترى جانبا من جوانب حياتها، فتجعله هو المسيطر وتأخذ بعين الاعتبار ما ورد في قسم من النصوص ـ وبعضها غير تام ـ ويقضي بأنها لكون العاطفة عندها هي الغالبة، فهي بذلك تجانب الحكمة والاعتدال في أحكامها. ولأنها أنثى فهي مصدر للشهوة وأحيانا كثيرة للفتنة، وربما أوصلها بعضهم إلى أنها سبب الفساد!! ولأنها كذلك فهي محل للعجز وعدم الفاعلية!!

بينما تغفل تلك الصورة القسم الآخر من الأحاديث التي تعلي من شأنها، وتحملها على أثر ذلك مسؤولية، فإن المعادلة في الإسلام هي بين التشريف والتكليف كلما زاد الأول ازداد الثاني.

وربما راجت تلك الصورة بحيث أصبحت هي المعرّف الأساس الذي لا تعرف المرأة ـ أيّاً كانت ـ بغيره. ولذلك يتعجب، وربما يشكك البعض في نبوغ النابغات، وينظرون إلى ذلك نظرة غير المصدق. فإنهم يفهمون ـ بنحو خاطئ ـ الآية المباركة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ على أن كل رجل بالضرورة هو أفضل من كل امرأة!!

وربما كان حديث القرآن الكريم عن بعض النساء اللاتي تفوقن على أزواجهن، بل على من عاصرهن من الرجال، كآسية ومريم، يهدف من جملة ما يهدف إلى بيان أن السباق في الميدان الإلهي لا يعترف بالذكورة والأنوثة وأن ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١]. وأنه لا ينبغي أن يشكل المجتمع الصورة الحقيقية للمرأة من خلال النماذج المتواضعة الموجودة لديه، فضلا عن الفاسدة منها، وإنما

---

(١)سورة النحل آية ٩٧.

ينطلق إلى رحاب أوسع حيث يصوغ الإيمان والرسالة من خامات أخر سبائك وعسجدا.

ومن تلكم النماذج، أم أحمد زوجة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام. فقد تميزت بين عدد من نسائه. بالرغم من أنها ضمن المقاييس العادية الموجودة عند الناس لا ينبغي لها التميز فهي (أم ولد)[1] وجارية ليست بعربية.

والمقدار المنقول من سيرتها يشير إلى أنها كانت مفضلة عند الإمام الكاظم عليه السلام، وأثيرة لديه حتى أنه أودع عندها مواريث الإمامة وكتب العلم[2]، عندما أُخذ للسجن حتى

---

(١) يلاحظ أن جميع نساء الإمام الكاظم عليه السلام كن أمهات أولاد . كما نقل ذلك كُتّاب سيرته .

(٢) «تواترت الأخبار بأن أئمة أهل البيت ورثوا كتاب الإمام علي (الجامعة) في الأحكام ، والجفر ، ومصحف فاطمة ، وفيها أنباء الحوادث الكائنة ، ويظهر من بعض الأحاديث السابقة والآتية أن هذه الكتب كانت في وعاء من جلد ثور يسمونه بالجفر الأبيض ، وما ورثوه من سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله كان في وعاء من جلد ثور يسمونه بالجفر الأحمر : وعاءان فيهما مواريث الإمامة في الكافي وبصائر الدرجات :

تحفظها، فإذا طلبها منها أحدُ أبنائه فإن ذلك علامة على إمامة من يطلبها بأعيانها، وعلامة أيضا على أنه قد استشهد في ذلك اليوم.

فقد نقل ثقة الإسلام الكليني في كتابه الكافي عن علي ابن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن مسافر[1] قال: أمر أبوإبراهيم (الكاظم عليه السلام) حين أخرج به، أبا الحسن (الرضا عليه السلام) أن ينام على بابه في كل ليلة أبدا ما كان حياً إلى أن يأتيه خبره.

عن الحسين بن أبي العلاء ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : عندي الجفر الأبيض ، قال : قلت فأي شيء فيه ؟ قال : زبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وصحف إبراهيم عليه السلام والحلال والحرام ، ومصحف فاطمة ما ازعم أن فيه قرآنا ، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد حتى فيه الجَلدة ، ونصف الجَلدة وربع الجلدة وأرش الخدش ، وعندي الجفر الأحمر ، قال : قلت : وأي شيء في الجفر الأحمر ؟ قال : السلاح. الحديث. ويقصد الإمام من «وفيه ما يحتاج الناس إلينا » أن في الجفر كتاب علي ، وفي كتاب علي ما يحتاج الناس إليه» عن معالم المدرستين للسيد مرتضى العسكري .

(١) الرواية حسنة فإن علي بن إبراهيم هو صاحب التفسير وهو ثقة بلا ريب ، ومحمد بن عيسى بن عبيد ثقة كذلك ومسافر خادم الإمام الكاظم عليه السلام ، وهو ممدوح كما نقل عن الكشي .

قال: فكنا في كل ليلة نفرش لأبي الحسن في الدهليز، ثم يأتي بعد العشاء فينام، فإذا أصبح انصرف إلى منزله، قال: فمكث على هذه الحال أربع سنين، فلما كان ليلة من الليالي أبطأ عنا وفرش له فلم يأت كما كان يأتي، فاستوحش العيال وذعروا ودخلنا أمر عظيم من إبطائه.

فلما كان من الغد أتى الدار ودخل إلى العيال وقصد إلى أم أحمد فقال لها: هات التي أودعك أبي!!

فصرخت ولطمت وجهها وشقت جيبها وقالت: مات والله سيدي! فكفها وقال لها: لا تكلمي بشي ولا تظهريه، حتى يجيء الخبر إلى الوالي، فأخرجت إليه سفطا[1] وألفي دينار أو أربعة آلاف دينار. فدفعت ذلك أجمع إليه دون غيره وقالت: إنه قال لي فيما بيني وبينه ـ وكانت أثيرة عنده ـ:

احتفظي بهذه الوديعة عندك، لا تطلعي عليها أحدا حتى

---

(١) السفط محركة واحد الأسفاط وهو ما يحرز فيه شيء من متاع وغيره ، والمراد به هنا صندوق كان فيه سلاح النبي ﷺ ووصيته وغيرهما من علامة الإمامة .

أموت، فإذا مضيت فمن أتاك من ولدي فطلبها منك فادفعيها إليه، واعلمي أني قد مت، وقد جاءني والله علامة سيدي، فقبض ذلك منها وأمرهم بالإمساك جميعا إلى أن ورد الخبر، وانصرف فلم يعد لشيء من المبيت كما كان يفعل، فما لبثنا إلا أياما يسيرة حتى جاءت الخريطة بنعيه فعددنا الأيام وتفقدنا الوقت فإذا هو قد مات في الوقت الذي فعل أبو الحسن (الرضا عليه السلام) ما فعل، من تخلفه عن المبيت وقبضه لما قبض[1].

ومن خلال هذه الرواية يمكن اكتشاف المنزلة التي كانت عليها هذه الزوجة الفاضلة للإمام الكاظم عليه السلام، ذلك أن ائتمانها على مثل تلك الأمور مع أن النظرة السائدة في المجتمع العربي آنئذ ـ ولا تزال ـ أن المرأة إنما خلقت للمتعة، أما المسؤوليات وشؤون القيادة، وما يهم الصالح الإسلامي العام فلا شأن لها به وإنما هو من مختصات الرجل، بل ما هو مشهور من اشتراط الذكورة في كثير من الأمور.

---

(١) الكافي ١/ ٣٨٢

وكذلك الحال لجهة الوضع العام، فإن الظرف الذي كـان يحيط بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام هو ظـرف أشـبه بأحكـام الطوارئ في أيامنـا حيـث الـسلطة العباسـية كانـت تعـيش في ظـروف التـصعيد الـسياسي والأمنـي أيـام المنـصور والمهـدي العباسي وولديه موسى الهادي وهارون الرشـيد، حيـث جُـرّد فيها سيف القتل على العلويين[1] سواء كانوا ثـوارا أو قاعـدين، وشبابا أو شيوخا..

وأيضا فقد نُقل أنها بايعت الإمام الرضـا عليه السلام بالإمامـة، وكان مطالبته إياها بما ترك والده من كتب العلـم، علامـة عـلى إمامته، هذا بالرغم من أن ابنها أحمـد كـان عظـيم المنزلـة عنـد شيعة أبيه حتى لقد كان يظنه البعض الإمام من بعد أبيه، وكان على قدر عال من العلم، والتقوى. وبيـنما نجـد في حيـاة نـساء الخلفاء والحكام كيف كانت النساء تتـآمر عـلى أبنـاء ضراتهـا،

(١) ولعل ما نقلناه سابقا من قصة حميد بن قحطبة ، و (وديعة) المنصور للمهدي من الجثث والجنائز تشير إلى ذلك ، والسجون تشهد على عدد من قتل فيها : للتفصيل يراجع مقاتل الطالبيين .

لإبعادهم عن الخلافة. والناظر في تاريخ الدولتين الأموية والعباسية، يرى مصداق ما ذكر.

هنا نجد حزام التقوى، وعقال الإيمان كيف يحدد حركة هذه السيدة الفاضلة، فلم تطلع أحدا على أمانة الكاظم لديها، بمن فيهم ابنها الذي (كان كريما جليلا ورعا وكان أبو الحسن موسى يحبه ويقدمه ووهب له ضيعته المعروفة باليسيرة، ويقال: إنه رضي الله عنه أعتق ألف مملوك)[1]. بل اعترفت بإمامته.

ونحن نجد الحركة الحكيمة التي قام بها العالم الجليل أحمد بن الإمام الكاظم عليه السلام في الاعتراف بإمامة أخيه، وقطع الطريق على من يريد إضعاف موقعه، ليست بعيدة عن تربية والدته وتوجيهها في الاعتراف بإمامة الرضا عليه السلام.

فإنه لما وصل الخبر بشهادة الإمام الكاظم عليه السلام، اجتمع الناس على باب بيت أم أحمد، ونحن لا نعلم سر قدومهم إلى بابها، بالرغم من تعدد زوجات الإمام الكاظم عليه السلام، وكثرة عدد أولاده، خصوصا وأن أم أحمد لم تكن والدة للإمام

(١) بحار الأنوار ٤٨ / ٣٠٧ عن إرشاد الشيخ المفيد.

الرضاعليه السلام.. لكنه مما يلقي بضوء على أن هذا البيت كان له من المكانة شيء ليس بالقليل.

ولما اجتمع الناس سار أحمد معهم إلى المسجد ولما كان عليه من الجلالة، ووفور العبادة ونشر الشرايع، وظهور الكرامات ظنوا به أنه الخليفة والإمام بعد أبيه فبايعوه بالإمامة، فأخذ منهم البيعة ثم صعد المنبر وأنشأ خطبة في نهاية البلاغة، و كمال الفصاحة، ثم قال: أيها الناس كما أنكم جميعا في بيعتي فاني في بيعة أخي علي بن موسى الرضا واعلموا أنه الإمام والخليفة من بعد أبي، وهو ولي الله و الفرض علي وعليكم من الله ورسوله طاعته، بكل ما يأمرنا.

فكل من كان حاضرا خضع لكلامه، وخرجوا من المسجد، يقدمهم أحمد بن موسى عليه السلام وحضروا باب دار الرضا عليه السلام فجددوا معه البيعة، فدعا له الرضا عليه السلام وكان في خدمة أخيه مدة من الزمان إلى أن أرسل المأمون إلى الرضاعليه السلام وأشخصه إلى خراسان[1].

---

(١) المصدر نفسه .

إن هذا العمل الرائع كان في غاية الأهمية، وذلك أن عـددا من وكلاء الإمام الكاظم عليه السلام كانوا قد اسـتعدوا للانقـلاب، طمعا في الأمـوال التـي كانـت بأيـديهم[1]، فـأنكروا أن يكـون موسى بن جعفر عليه السلام قد توفي، وأنه هو القائم بالأمر، وأنـه لا يموت حتى يظهر العـدل، ويزيـل الجـور، وربـما تـابع هـؤلاء الوكلاء عـدد مـن عامـة النـاس ممـن كـانوا يثقـون في هـؤلاء الوكلاء، أو كانوا لا يعرفـون تفـسير تلـك التعـابير التـي ربـما وردت في حق الإمام عليه السلام، وكونه القائم بالأمر.

كما أن أم أحمد عندما قامت بتسليم أمانات الإمام الكـاظم لابنه الرضا أثبتت أنها في موضع الاعتماد الحقيقي، وأن فراسـة الإمام فيها كانت صادقة.

بل وجدناها تتفوق على بعض أولاد الإمام عليه السلام، عنـدما

---

(١)اختيار معرفة الرجال ـ الشيخ الطوسي ج ٢ ص ٧٦٧ :
عن يونس بن عبد الرحمن ، قال ، مات أبو الحسن عليه السلام وليس عنده من قوامه أحد إلا وعنده المال الكثير ، وكان ذلك سبب وقفهم وجحدهم موته ، وكان عند زياد القندي سبعون ألف دينار .

أحضرت إلى مجلس القاضي، ودافعت فيه عن حق الإمام الرضا عليه السلام في مقابل بعض إخوته. وذلك أن الإمام الكاظم عليه السلام كان قد جعلها شاهدة على وصيته[1] التي عهد فيها بعهوده إلى الإمام الرضا عليه السلام، وقد أدت الشهادة، بالرغم من كراهة عدد من أولاد زوجها لذلك.

---

(١) في البحار (٤٩ / ٢٢٦) .. وأوصيت بها إلى علي ابني وبني بعده إن شاء وآنس منهم رشدا وأحب إقرارهم فذلك له ، وإن كرههم وأحب أن يخرجهم فذلك له ، ولا أمر لهم معه ، وأوصيت إليه بصدقاتي وأموالي وصبياني الذين خلفت وأم أحمد وإلى علي أمر نسائي دونهم ، وثلث صدقة أبي وأهل بيتي يضعه حيث يرى ، ويجعل منه ما يجعل ذو المال في ماله إن أحب أن يجيز ما ذكرت في عيالي فذاك إليه ، وإن كره فذاك إليه ، وإن أحب أن يبيع أو يهب أو ينحل أو يتصدق على غير ما وصيته فذاك إليه وهو أنا في وصيتي في مالي وفي أهلي وولدي . وإن رأى أن يقر إخوته الذين سميتهم في صدر كتابي هذا أقرهم وإن كره فله أن يخرجهم غير مردود عليه ، وإن أراد رجل منهم أن يزوج أخته فليس له أن يزوجها إلا بإذنه وأمره ، وأي سلطان كشفه عن شيء أو حال بينه وبين شيء مما ذكرت في كتابي فقد برئ من الله تعالى ومن رسوله ، والله ورسوله منه بريئان وعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والملائكة المقربين ، والنبيين والمرسلين أجمعين وجماعة المؤمنين ..

سعيدة بنت أبي عمير الأزدي

تصاعد العنف العباسي تجاه أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، متخذا في ذلك صورا متعددة منها القتل ومنها الاعتقال التعسفي الظالم الذي طال الأئمة كما طال الشيعة.

نعم لقد كانت الفترة التي حكم فيها هارون العباسي فترة قاسية، حتى بالنسبة لفترات بني أمية السابقة والذين صرحوا بكامن العداء!

وبدأت ماكنة العنف تطوي رجالات الشيعة، والمخلصين للأمة. ولم تتورع أجهزة السلطة في تلك العملية عن عالم لعلمه، ولا عن فقيه لفقهه، ولم تعرف خطوطا حمراء. فالفقيه إما أن يكون قاضيا للحكومة فيدعم سلطانها بما يفتي به حسب رغبتها، ويمسح بعلمه غبار عدم مشروعيتها، وإما أن يحسب ضدها، على خلفية (من لم يكن معنا فهو ضدنا).

واعتقل العالم الجليل، والفقيه الكبير محمد بن أبي عمير الأزدي وهو الذي وصف بأنه «كان من أوثق الناس عند الخاصة والعامة وأنسكهم نسكا وأورعهم وأعبدهم ، وأدرك من الأئمة ثلاثة: أبا إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام ولم يرو عنه، وروى عن أبي الحسن الرضا ، والجواد عليهما السلام، وروى عنه: أحمد بن محمد بن عيسى كتب مائة رجل من رجال أبي عبدالله عليه السلام . وله مصنفات كثيرة»[1].

وقد عذب في السجن وضرب بالسياط، حتى بلغ الألم به مقدارا كاد أن يضعف، فيخبر عن شيعة أهل البيت عليهم السلام ويعطي لسجانيه ما أرادوا، لكن يونس بن عبد الرحمن وهو فقيه آخر من فقهاء أهل البيت، ويظهر أنه كان قريبا منه في سجنه، قال له ـ مقويا عزمه ـ: اتق الله يا محمد بن أبي عمير.. يقول محمد فصبرت ففرج الله.

هذا المقدار الهائل من الروايات، والذي يصفه بعض

---

(١)نقد الرجال للتفرشي ٤/ ١٠٦.

المؤلفين بأنه قد روي عنه كتب مائة رجل من أصحاب أبي عبد الله الصادق عليه السلام، ولكل واحد منهم عدد غير قليل من الكتب، إضافة إلى كتبه هو ومصنفاته، وهي تزيد على التسعين، كادت أن تقع طعمة في يد سياسيين حاقدين على فكر أهل البيت، أو في يد جلاوزة وعساكر لا يفهمون قيمة العلم، ولا يعرفون أهمية الفكر فيربحون بإتلافه ثمنا قليلا، وحطاما تافها.

وكم أتلف هؤلاء من كتب العلم[1]، والمعرفة، ولعل

---

(١)ذكروا في إحراق عمرو بن العاص لكتب مكتبة الإسكندرية أن كتبها ـ وكانت من أعظم مكتبات الدنيا حينئذ ـ قد فرقت على الحمامات، لتوضع في مواقدها فاستنفذت خلال ستة أشهر!! وقد يقول قائل إن تلك الكتب كتب ضلال وليس فيها منفعة، فلا بد أن تتلف .. وأنت ترى أن هذا الكلام كلامٌ بائس، فإن تلك الكتب فيها ما يرتبط بأمور العقيدة وقد يكون غير صحيح، وفيها ما هو من نتاج الفكر البشري وهو نعمة الله، وإبداع العقل الإنساني في أمور المعرفة الحياتية والدنيوية، وعلى هذه الأمور تقوم الحضارة وتتقدم الأمم، وتصور لو أن إنسانا جاء في هذا اليوم وعمد إلى مكتبة الكونغرس وهي من أكبر مكتبات الدنيا كما قيل، وأتلف جميع كتبها بزعم أنها كتب ضلال .. أين

السياسيين يرون فيها منافسا خطيرا لوسائلهم فكما أن من أسباب قوتهم المال والسلاح، فإنهم ينظرون إلى أن كتب العلم هي نقطة القوة عند العلماء والفقهاء وأصحاب الرسالات.

كان من المقرر عند أعوان السلطة أن يتم (إعدام) كتب العلم والروايات، وفقه أهل البيت بعد (اعتقال) مصنفها وراويها ابن أبي عمير.

وهنا تحركت أخته (سعيدة) ـ وربما كانت (منة) معها ـ إدراكا منها لقيمة العلم والفكر من جهة، ولبصيرتها في أن القوم الحاكمين، يعادون المعرفة عداء مستحكما، فقامت بجمع كتب أخيها ومصنفاته، وكذا الكتب التي أخذها عن أساتذته (المائة) من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام فأخفت كل ذلك، ودفنتها تحت الأرض لكيلا يعثروا عليها، وبقيت تلك الكتب هكذا، مدة أربع سنوات هي فترة بقاء محمد بن أبي عمير في

تذهب المعارف البشرية والعلمية ؟؟ ثم لو فرضنا عنوان (كتب الضلال) في القضايا العقائدية ، فهل يمكن دعوى ذلك في كتب الكيمياء والفيزياء ، وطبقات الأرض .. ؟

السجن حتى إذا خرج كان قد تلف جزء منها وبقي جزء آخر، واستطاع من خلال ذلك أن يصنف عددا من الكتب[١] كما ذكر الرجاليون.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت من (أصحاب الإمام الصادق عليه السلام)[٢] كما عن شيخ الطائفة الطوسي قدس سره، وقد نقل عنها في مجال الفقه رواية في باب النكاح، ترتبط بأمر المصافحة..

---

(١)منها ١- كتاب المغازي.٢- كتاب الكفر والإيمان.٣- كتاب البداء ٤- كتاب الاحتجاج في الإمامة.٥- كتاب فضائل الحج.٦- كتاب الاستطاعة.٧- كتاب الملاحم.٨- كتاب الصلاة.٩- كتاب الصيام.١٠- كتاب اختلاف الحديث.١١- كتاب المعارف.١٢- كتاب التوحيد.١٣- كتاب الطلاق.١٤- كتاب النكاح.١٥- كتاب الرضاع ١٦- كتاب المتعة.١٧- كتاب يوم وليلة . راجع ترجمته في كتاب رجال حول أهل البيت ج ٢.

(٢)يفترض أيضا أن تذكر في جملة أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام فإنها وإن روت عن الإمام الصادق عليه السلام إلا أن أخاها وهي معاصرة له ، من أصحاب الكاظم والرضا عليهما السلام . نعم لا توجد لها رواية عن الإمامين الكاظم والرضا ، وقد ذكرنا في المقدمات أن الصحبة التي نبحث عنها لا يشترط فيها الرواية .

ولكـي يتـضح الأمـر فيـه، نحتـاج إلى مقدمـة وهـي: أن الإسلام يخطط في تشريعاته، لكـي تخلـو العلاقـة الرابطـة بـين الرجل والمرأة ـ في غير الزوجين ومن بحكمهما ـ من الايحاءات الجنسية، بحيث تتحول العلاقة إلى علاقة إنـسان بإنـسان، و لا يكون الجسد هو المعبر عنها، وإنما الروح.

وهذا بخلاف ما يلاحظ اليوم في العلاقـة التـي تـصوغها المناهج المادية، فإنهـا تركـز عـلى أن المـرأة جـسد جميـل ومحـل اشتهاء، ودون ذلك لا ينبغي أن يلاحـظ، ولهـذا كـان التركيـز على أدوات التجميل وأساليب الموضة، وقـضايا اللبـاس شـبه العاري..

ومما يؤسف له أن هذه الحالات لا تتوقـف عنـد (الرجـل والمرأة الأجنبيين) وإنما تمتد في بعض الحالات لتـصل حتـى إلى المحارم (كـالأخ وأختـه، والخـال وابنـة أختـه، والعمـة وابـن أخيها) وهكذا وحيث أن الشهوة الجنسية لا تعرف الحدود مـا لم تضبط بالضابط الـديني والأخلاقـي، فقـد يحـدث ـ ولـيس

بقليل ـ كما نقرأ في المجلات، وغيرها، حوادث مؤذية من الاعتداءات الجنسية بين المحارم[١]. ولعل سببا أساسيا من الأسباب أن العلاقة بينهم قد اختلت لكي تتحول إلى علاقة جسد بجسد، طرف فيه فتنة وإثارة يظهرها، وطرف آخر فيه جوع واشتهاء، والكابح الأخلاقي والديني ضعيف فيحدث المحذور.

ولهذا يصر الإسلام من خلال تشريعاته أن يكون واقعيا في التعامل مع المشكلة الجنسية فيشرع لها ما يحلها بشكل صحيح (من خلال الزواج الدائم والمتعدد والمؤقت[٢]). وفي

---

(١)نقلت بعض الصحف اللبنانية قبل فترة حوادث جريمة من هذا النوع في إحدى المناطق حيث ظل الخال يواقع ابنة أخته مدة تزيد على السنة من الزمان إلى افتضح الأمر .!! وتتحدث تقارير معتمدة عن تزايد هذه الحالات .

(٥)العجيب من بعض فقهاء المسلمين الذين يصرون على إخفاء رؤوسهم في الرمال ، حين يواجهون المشكلة الجنسية ويعلمون بمدى خطورتها بالذات بالنسبة لفئة الشباب ويصرون في الوقت نفسه على (تحريم) ما أحله الله ورسوله وهو الزواج المؤقت ، وعندما يرتطمون بالجدار ، يعودون ـ يا ليت لما شرعه الله ـ إلى حل للمشكلة ،كما يزعمون

جانب المحارم يشرع لها ما يحفظ حالة القداسة فيها، فهو وإن كان لا يمنع تكشف المحارم أمام بعضهم، ولكن ذلك يجب أن يكون في غير إطار الشهوة الجنسية أو الإفضاء إلى الحرام، وإلا لو كان كذلك للزم التستر!! و(..الإنسان على نفسه بصيرة) فيعرف هو قبل غيره نظرة الشهوة التي ينظرها، ويميزها بوضوح عن النظرة العادية.. فإذا كان كذلك فلا يجوز النظر حتى للأخت الشقيقة!!

وفي الطرف الآخر أيضا يشجع ويحث المرأة على أن تلبس بين محارمها ما لا يثير الغرائز، وإلا كانت آثمة بذلك.. فمع أنه لا يجب عليها أن تتحجب عن أخيها أو أبيها أو خالها..وغيرهم من المحارم، إلا أن ذلك لا يعني أن تلبس ما يثير الشهوات في النفوس أمامهم. ولهذا فإننا نجد في الرواية التي تنقلها سعيدة عن الإمام الصادق عليه السلام توجيها إلى أن لا

فمرة باسم زواج المسيار وأخرى الزواج بنية الطلاق، وثالثة ولن تكون الأخيرة باسم (زواج فريند)!! يا جماعة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟

تلبس المصبغات (وهي الملابس التي من شأنها الإثارة الشهوية). وهكذا لو كان بعض المحارم في العائلة ليسوا على مستوى عال من الالتزام الديني والأخلاقي، فإن المباح (كالمصافحة) يعود في بعض صوره مكروها وغير محبذ.

فقد نقل الكليني أعلى الله مقامه في كتابه الكافي في باب النكاح: عن علي بن إبراهيم، عن محمّد بن سالم، عن بعض أصحابه، عن الحكم بن مسكين قال حدثتني سعيدة ومنّة أختا محمّد بن أبي عمير بياع السابري قالتا:

دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فقلنا: تعود المرأة أخاها؟.

قال: « نعم ».

قلنا: تُصافحه؟

قال: « من وراء الثوب ».

قالت إحداهما: إن أُختي هذه تعود إخوتها.

قال: « إذا عدتِ إخوتك فلا تلبسي المصبغة ».

وإذا لم تكن القضية خارجية، بمعنى أن الإمام نظر إلى الواقع الخارجي المرتبط بهما فذكر لهما كراهة المصافحة المباشرة، وكراهة لبس المصبغات والمثيرات، فيمكن حملها على ما ذكرناه آنفا.

شطيطة النيسابورية

توفيت بعد ١٤٨ هـ

شرع الله أحكام الدين، وبينها بطرق متعددة، فالبعض منها ذكر تشريعه في القرآن، والبعض الآخر أوكله إلى رسوله الكريم محمد ﷺ بعدما أدبه وأكمل تأديبه، وأمر الناس بالأخذ بما جاءهم به[1].

(١) الكليني في الكافي بسند صحيح : عن فضيل بن يسار قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لبعض أصحاب قيس الماصر : إن الله عز وجل أدب نبيه فأحسن أدبه فلما أكمل له الأدب قال : ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، ثم فوض إليه أمر الدين والأمة ليسوس عباده ، فقال عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وإن رسول الله ﷺ كان مسددا موفقا مؤيدا بروح القدس ، لا يزل ولا يخطئ في شيء مما يسوس به الخلق فتأدب بآداب الله .. إلى آخر الحديث
ولا يخفى أن التفويض هنا ليس كما يذهب إليه البعض من أنه فوض إليه أمر الخلق والرزق ، فهو يفعل ذلك استقلالا ، فإنه مخالف لما في القرآن ، وإنما يعني تفويض أمر الخلق إليه كما في الرواية المذكورة

غير أن المشكلة كانت في أن بعض المسلمين (اجتهدوا) في مقابل النص النبوي فعطلوه، وغيروه! ولك في موضوع تشريع الخمس وما الذي صار إليه، مثال.

فقد أمر الباري سبحانه في قرآنه بشكل صريح به وقال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهَّ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهَّ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وقد أخذ رسول الله الخمس في أيامه من المسلمين، سواء كان غنيمة حربية أو غيرها[2].

ليسوس عباده ، وليأتمروا بطاعته ، وكذلك أيضا انه قد فوض إليه صلى الله عليه وآله وسلم الأحكام بأن يسأل الله سبحانه أن يثبت ما يراه حسنا فيجيز الله ذلك .. وللحديث في هذا مجال آخر .

(١)سورة الأنفال آية ٤١

(٢)للتفصيل يراجع البحث القيم للعلامة العسكري في معالم المدرستين حول الخمس في تطور معناه اللغوي ، والبحث القرآني ، وأنه لم يستعمل في خصوص الغنيمة الحربية ، وإلا لما كان معنى لأن يقول (من شيء) الذي هو ظاهر في العموم ، كما أن لفظ الغنيمة لا يختص بالحرب كما هو واضح للمتأمل في آيات القرآن (فعند الله مغانم كثيرة) و (فكلوا

غير أن الذي حدث أن الحكومات التي جاءت فيها بعد، عطلت هذه الفريضة، وأصبح الخمس جزءا من بيت المال، الذي كان يتداول بين الحاكمين، ويصرف على شهواتهم، ومغنيهم.

مما غنمتم حلالا طيبا) .. وأنه كما يعني : ما يظفر به المرء من جهة العدى ، كذلك يعني ـ بل هو الأصل ـ ما يظفر به المرء من غير مشقة .. وأخيرا الخمس في السنة النبوية ، وفيه قد ذكر عددا من الأحاديث التي تبين عمومية الخمس لما هو في الركاز قال: «وفي الركاز الخمس ، فقالوا وما الركاز ؟ قال : الذهب والفضة الذي خلقه الله في الأرض يوم خلقت» ونقل ما حدث لأحد المسلمين في خيبر عندما دخل إلى خربة ليقضي الحاجة ، فانكشفت الأرض هناك عن لبنة ذهب ، فأخذها وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : هذا ركاز وفيه الخمس .. كما نقل عددا من عهود النبي ووصاياه لمن كان يأتيه من وفود القبائل في أن يعطوا الخمس . كما هو الحال في وفد عبد القيس الذين كانوا يحتاجون إلى من يعينهم ولم يكونوا في صدد الحرب ولا الغنائم!! وكتابه لعمرو بن حزم عندما بعثه لأهل اليمن ، أن يأخذ الخمس من المغنم .

ثم ذكر بعض الروايات في مصارف الخمس من طريق أهل السنة : «كان آل محمد لا تحل لهم الصدقة فجعل الله لهم الخمس» ، و«أن الله علم في بني هاشم الفقراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة» .. هذا فضلا عن أحاديث أهل البيت عليهم السلام وهي كثيرة جدا وصريحة في الموضوع .

بل ـ وهذا هو الغريب حقا ـ تراجع البحث الفقهي حول موضوع الخمس تدريجيا، من كونه واجبا شرعيا، يلزم به الإنسان المسلم في كل ما يكسب ويستفيد من غنيمة، وربح، إلى أن صار خاصا بالغنائم الحربية، التي لم يلتزم أيضا أصحابها وقادة حروبها بشيء منه، وصار البحث عنه في ذيل كتاب الجهاد أو الزكاة، وتدريجيا اختفى هذا البحث نهائيا من كثير من كتب الفقه.

بينما بقي على الالتزام بهذا الواجب الشرعي فقهاء أهل البيت عليهم السلام بحثا واستدلالا، وعقد له باب مستقل لما ورد فيه من الآثار والأخبار[1]، والتزم به أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من الناحية العملية، بل رتب على الالتزام به كثير من

(١)ذكر له باب مستقل في الكافي لثقة الإسلام الكليني (ت ٣٢٩ هـ) و في المقنع للصدوق (ت ٣٨١ هـ) . ومن تلك الأخبار ما نقله الكليني: موثقة سماعة : سألت أبا الحسن (الكاظم) عليه السلام عن الخمس فقال : «في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير»، وفيه أيضا صحيحة البزنطي عن الجواد عليه السلام سألته عن الخمس قبل المؤونة أو بعد المؤونة فقال : الخمس بعد المؤونة .. وغيرها .

الأحكام. حتى فيما يرتبط بالعبادات الأخرى.

وقد أكد الأئمة عليهم السلام على الالتزام بـه لمـا فيـه مـن المنـافع والفوائد الدينية والدنيوية، فمن تلك الفوائد:

١/ تطهير النفس من عبودية المال: فإن الملاحظ لـيرى أن للمال تأثيرا مهما على نفس مالكه ـ في العادة ـ وقد يعظـم ذلـك التأثير إلى أن يصبح مالكُ المال مملوكا لـه، ويـصبح المـال سـيدَ سيده!! فيخسر بـذلك أهـم شيء عنـده، وهـو كونـه عبـد الله وحـده لا شريـك لـه، ويفقـد دينـه!! ولعـل في قـصة قـارون وسيطرة ماله عليه والتي بينهـا القـرآن مـثلا وعـبرة مـا يكفـي لفهم مقدار ذلك التأثير.

٢/ ومـن تلـك الفوائـد مـشاركة الإنـسان المـسلم دافـع الخمس في سد الثغرات ومناطق الخلل والضعف الاجتماعـي، ومـساعدة الفئـات المحتاجـة لـسترها وتيـسير أمـور حياتهـا، والإسهام في البناء الاجتماعي (كالتبليغ الديني وما يـرتبط بـه، ونـشر الثقافـة والفكـر الهـادف، وتأسـيس المؤسـسات ذات

المصلحة العامة، وما يشبه ذلك،) مما يصطلح عليه بمصارف حق الإمام عليه السلام وهو ما يهم القيادة تحقيقه في المجتمع[1].

٣/ إعانة الذرية المحترمة المتشرفة بالانتساب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإصلاح أحوال الفقراء المتدينين منهم، ودعمهم لتزويجهم وإسكانهم ورفع الحاجة عنهم. فيما يصطلح عليه باسم (حق السادة) فإن الله سبحانه قد أكرم ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لانتسابها إليه، عن السؤال والاستعطاء، بل وعن أخذ الزكاة،

(١) ذكر في الرسائل العملية لفقهائنا أمثلة ، على مصرف سبيل الله الذي هو من مصارف الزكاة ، ومن مصارف الخمس (في الجملة) ، فقد ذكر السيد اليزدي قدس سره في العروة بعض الأمثلة على مصرف سبيل الله في باب الزكاة فقال : سبيل الله وهو جميع سبل الخير كبناء القناطر والمدارس والخانات والمساجد وتعميرها وتخليص المؤمنين من يد الظالمين ونحو ذلك من المصالح كإصلاح ذات البين ، ودفع وقوع الشرور والفتن بين المسلمين ، وكذا إعانة الحجاج والزائرين وإكرام العلماء والمشتغلين مع عدم تمكنهم من الحج والزيارة والاشتغال ونحوها من أموالهم ، بل الأقوى جواز دفع هذا السهم في كل قربة مع عدم تمكن المدفوع إليه من فعلها بغير الزكاة ، بل مع تمكنه أيضا ، لكن مع عدم إقدامه إلا بهذا الوجه

وفرض لهم نصف الخمس ليصلحوا به أحوالهم.

ونحن مع نظرنا إلى التاريخ ومعرفتنا بتعمد الحكومات الطاغية إفقارَ أهل البيت عليهم السلام وإضعافهم[1]، نجد الحكمة واضحة في تشريع الخمس لحق أهل البيت، فهو من جهة يمكن أن يكون من مصاديق المودة الواجبة لهم، والصلة

---

(١) نقل الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا عليه السلام ، قصة هارون الرشيد مع ابنيه المأمون والأمين وكيف أنه أمرهم بإكرام الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام والقيام بين يديه ، وأدنى مجلسه لكنه لما صار وقت العطاء لم يعطه سوى مائتي دينار ، يقول المأمون : فلما أراد الرحيل من المدينة إلى مكة أمر بصره سوداء فيها مائتا دينار ثم اقبل على الفضل بن الربيع فقال له : اذهب بهذه إلى موسى بن جعفر وقال له : يقول لك أمير المؤمنين : نحن في ضيقة وسيأتيك برنا بعد الوقت فقمت في صدره فقلت : يا أمير المؤمنين تعطي أبناء المهاجرين والأنصار وساير قريش وبني هاشم ومن لا تعرف حسبه ونسبه خمسه آلاف دينار إلى ما دونها وتعطى موسى بن جعفر وقد أعظمته وأجللته مائتي دينار أخس عطية أعطيتها أحدا من الناس ؟! فقال : اسكت لا أم لك فاني لو أعطيت هذا ما ضمنته له ما كنت أمنته أن يضرب وجهي غدا بمائه ألف سيف من شيعته ومواليه وفقر هذا وأهل بيته اسلم لي ولكم من بسط أيديهم وأعينهم ..!!

المتعينة لجدهم صلى الله عليه وآله وسلم، ومن جهة أخرى فإن ما يُنتظر من هذه الأسرة الشريفة في نصر الدين وإعلاء كلمة الله ـ كما أثبتوا ذلك في مختلف الميادين في تاريخ المسلمين ـ يجعل أمر الخمس وحقهم فيه ليس بالكثير[1].

ولقد كانت سيرة أتباع أهل البيت الملتزمين بتعاليمهم، على القيام بتطهير أموالهم من خلال دفع حقوق الله عليهم وعدم تأخيرها.

ونجد بعض الحالات التي كان فيها دفع الخمس، والحق الشرعي، ليس لجهة أنه مبلغ كثير، وإنما باعتباره موقف التزام بحكم شرعي، وواجب ديني، يُعرب عن اهتمام صاحبه بالأحكام الشرعية، وبأن يطهر أمواله لتحل البركة فيها.

بل ربما كان الإمام عليه السلام وهو يستلم الخمس، يعيد إلى صاحبه ما هو أكثر مما دفعه مما يعني أنه لم تكن الجهة المالية

(١) مضمون رواية هي جواب على استكثار بعض مخالفيهم للخمس وأنه كيف يجعل الخمس كله لهم ، فأجاب الإمام ما مضمونه : إن الذي أوجبه لنا علم أنه ليس بالكثير .

منظورة، وإنما جهة التطهير والإعراب عن الالتزام الديني هـي الملحوظة[1].

وأمامنـا نمـوذج متميـز مـن هـذه الـنماذج: شـطيطة النيسابورية.

امرأة ترى نفـسها مخاطبـة بالأحكـام الـشرعية عـلى حـد مخاطبة الرجال[2]، ولا تستثني نفسها من المسؤولية.. وكانت إلى ذلك على قدر عال من الإخلاص والنية الصادقة.. وهـذا هـو المهم في كثير من الإنفاقات، فإنه ممـا يمنـع القبـول للـصدقات

(١) ذكر الحر العاملي في وسائل الشيعة (آل البيت) رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : إني لآخذ من أحدكم الدرهم وإني لمن أكثر أهل المدينة مالا ، ما أريد بذلك إلا أن تطهروا .

(٢) العجيب أن عددا غير قليل من النساء المتدينات لا يحسبن أنفسهن مخاطبات بأحكام الخمس ، فالواحدة منهن ترى أن أباها مسؤول عن (خمسها) قبل الزواج ، وزوجها مسؤول عنه بعد الزواج ، وهذا غير صحيح ، فكما أن الوالد والزوج لا يقومان بفعل الصلاة والصوم نيابة عنها ، فكذلك الحال في الخمس فإنها مخاطبة به لو كان لديها مال وربح ومكسب ، وزاد عن مؤونتها السنوية .. نعم لا مانع من أن توكلهما عنها في الدفع والحساب .

والعطايا من قبل الكثير أنهم ﴿ لا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾[١].. وكم أنفق أناس من الأموال الطائلة لينالوا الثناء الدنيوي أو يصلوا إلى مصالح عاجلة، فذهب سعيهم هباء بينما أنفق آخرون ثلاثة أرغفة لا تساوي قيمة مادية لكن أرّخها القرآن وشكر سعي علي وأهل بيته، وأنزل الله قرآنا يتلى، وقصة حاضرة في (هل أتى).

وهنا نحن أيضا أمام نموذج آخر من الإنفاق الصادق، البعيد عن الرياء، القريب من المسؤولية الدينية.. درهم لا غير، قبله الإمام بقبول حسن، وعوضها عنه أربعين درهما.. فلنقرأ ما ينقله ابن حمزة الطوسي[٢] في كتابه الثاقب في المناقب:

عن أبي علي بن راشد، قال: اجتمعت العصابة بنيسابور في أيام أبي عبد الله عليه السلام فتذاكروا ما هم فيه من الانتظار

---

(١)سورة التوبة آية ٥٤.

(٢) الشيخ عماد الدين محمد بن علي بن حمزة الطوسي (توفي سنة ٥٦٠ هـ) وهو من طبقة تلامذة شيخ الطائفة الطوسي وابنه أبي علي ، وله كتب فقهية وغيرها من أبرزها وهو مطبوع كتاب (الوسيلة في الفقه).

للفرج، وقالوا: نحن نحمل في كل سنة إلى مولانا ما يجب علينا، وقد كثرت الكاذبة، ومن يدعي هذا الأمر، فينبغي لنا أن نختار رجلا ثقة نبعثه إلى الإمام، ليتعرف لنا الأمر.

فاختاروا رجلا يعرف بأبي جعفر محمد بن إبراهيم النيسابوري ودفعوا إليه ما وجب عليهم في السنة من مال وثياب، وكانت الدنانير ثلاثين ألف دينار، والدراهم خمسين ألف درهم، والثياب ألفي شقة، وأثواب مقاربات ومرتفعات.

وجاءت عجوز من عجائز الشيعة الفاضلات اسمها (شطيطة) ومعها درهم صحيح، فيه درهم ودانقان، وشقه من غزلها، خام تساوي أربعة دراهم، وقالت ما يستحق علي في مالي غير هذا، فادفعه إلى مولاي!

فقال: يا امرأة استحي من أبي عبد الله عليه السلام أن أحمل إليه درهما وشقة بطانة.

فقالت: ألا تفعل! إن الله لا يستحي من الحق، هذا الذي يستحق، فاحمل يا فلان فلئن ألقى الله عز وجل وما له قِبلي حق

قل أم كثر، أحب إلي من أن ألقاه وفي رقبتـي لجعفـر بـن محمـد حق.

قال: فعوجت الدرهم، وطرحته في كـيس، فيـه أربعمائـة درهم لرجل يعرف بـ (خلف بن موسى اللؤلوئي)، وطرحـت الشقة في رزمة فيها ثلاثون ثوبا «لأخوين بلخيين يعرفان بـابني نوح بن إسماعيل، وجاءت الشيعة بـالجزء الـذي فيـه المـسائل، وكان سبعين ورقة، وكل مسألة تحتها بياض، وقد أخـذوا كـل ورقتين فحزموها بحزائم ثلاثة، وختموا على كل حزام بخاتم، وقالوا: تحمل هذا الجزء معك، وتمضي إلى الإمام، فتدفع الجـزء إليه، وتبيته عنده ليلـة، وعـد عليـه وخـذه منـه، فـإن وجـدت الخاتم بحاله لم يكـسر ولم يتـشعب فاكـسر منهـا ختمـه وانظـر الجواب، فإن أجاب ولم يكسر الخواتيم فهو الإمام، فادفعه إليـه وإلا فرد أموالنا علينا.

قال أبو جعفر: فسرت حتى وصلت إلى الكوفة، وبـدأت بزيارة أمير المـؤمنين صـلوات الله عليـه، ووجـدت عـلى بـاب المسجد شيخا مسنا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وقـد تشنج وجهه، متزرا ببرد، متشحا بآخر، وحوله جماعة يـسألونه

عن الحلال والحرام، وهو يفتيهم على مذهب أمير المؤمنين عليه السلام، فسألت من حضر عنده، فقالوا: أبو حمزة الثمالي. فسلمت عليه، وجلست إليه، فسألني عن أمري، فعرفته الحال، ففرح بي وجذبني إليه، وقبل بين عيني وقال: لو تجدب[1] الدنيا ما وصل إلى هؤلاء حقوقهم، وإنك ستصل بحرمتهم إلى جوارهم. فسررت بكلامه، وكان ذلك أول فائدة لقيتها بالعراق، وجلست معهم أتحدث إذ فتح عينيه، ونظر إلى البرية، وقال: هل ترون ما أرى؟ فقلنا: وأي شيء رأيت.

قال: أرى شخصا على ناقة. فنظرنا إلى الموضع فرأينا رجلا على جمل، فأقبل، فأناخ البعير، وسلم علينا وجلس، فسأله الشيخ وقال: من أين أقبلت؟

قال: من يثرب. قال: ما وراءك؟ قال: مات جعفر ابن محمد عليهما السلام. فانقطع ظهري نصفين، وقلت لنفسي: إلى أين أمضي؟!

---

(١) تخرب وفي نسخة نحرت ، أو تجرت .. أقول : يحتمل أن تكون لو تجوب الدنيا أي تطوفها ..

فقال له أبو حمزة: إلى من أوصى؟ قال: إلى ثلاثة، أولهم أبو جعفر المنصور، وإلى ابنه عبد الله، وإلى ابنه موسى.

فضحك أبو حمزة، والتفت إلي وقال: لا تغتم فقد عرفت الإمام.

فقلت: وكيف أيها الشيخ؟! فقال: أما وصيته إلى أبي جعفر المنصور فستر على الإمام، وأما وصيته إلى ابنه الأكبر والأصغر فقد بيّن عن عوار الأكبر، ونص على الأصغر.

فقلت: وما فقه ذلك؟ فقال: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الإمامة في أكبر ولدك يا علي، ما لم يكن ذا عاهة» فلما رأيناه قد أوصى إلى الأكبر والأصغر، علمنا أنه قد بين عن عوار كبيره، ونص على صغيره، فسر إلى موسى، فإنه صاحب الأمر.

قال أبو جعفر: فودعت (قبر) أمير المؤمنين، وودعت أبا حمزة، وسرت إلى المدينة، وجعلت رحلي في بعض الخانات، وقصدت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزرته، وصليت، ثم خرجت وسألت أهل المدينة: إلى من أوصى جعفر بن محمد؟

فقالوا: إلى ابنه الأفطح عبد الله فقلت: هل يفتي؟

قالوا: نعم. فقصدته وجئت إلى باب داره، فوجدت عليها من الغلمان ما لم يوجد على باب دار أمير البلد، فأنكرت، ثم قلت: الإمام لا يقال له لِمَ؟ وكيف؟ فاستأذنت، فدخل الغلام، وخرج وقال: من أين أنت؟

فأنكرت وقلت: والله ما هذا بصاحبي.

ثم قلت: لعله من التقية، فقلت: قل: فلان الخراساني!

فدخل وأذن لي، فدخلت، فإذا به جالس في الدست على منصة عظيمة، وبين يديه غلمان قيام، فقلت: ذا أعظم!! الإمام يجلس في الدست؟

ثم قلت هذا من الفضول الذي لا يحتاج إليه، يفعل الإمام ما يشاء، فسلمت عليه، فأدناني وصافحني، وأجلسني بالقرب منه، وسألني فأحفى ، ثم قال: في أي شيء جئت؟

قلت: في مسائل أسأل عنها، وأريد الحج.

فقال لي: إسأل عما تريد فقلت: كم في المائتين من الزكاة؟ قال: خمسة دراهم. قلت: كم في المائة؟ قال: درهمان ونصف.

فقلت: حسن يا مولاي، أعيذك بالله، ما تقول في رجل قال لامرأته: أنت طالق عدد نجوم السماء؟

قال: يكفيه من رأس الجوزاء، ثلاثة.

فقلت: الرجل لا يحسن شيئا. فقمت وقلت: أنا أعود إلى سيدنا غدا.

فقال: إن كان لك حاجة فإنا لا نقصر. فانصرفت من عنده، وجئت إلى ضريح النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانكببت على قبره، وشكوت خيبة سفري، وقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إلى من أمضي في هذه المسائل التي معي؟ إلى اليهود، أم إلى النصارى، أم إلى المجوس، أم إلى فقهاء النواصب؟ إلى أين يا رسول الله؟

فما زلت أبكي وأستغيث به، فإذا أنا بإنسان يحركني، فرفعت رأسي من فوق القبر، فرأيت عبدا أسود عليه قميص

خلق، وعلى رأسه عمامة خلق فقال لي: يا أبا جعفر النيسابوري، يقول لك مولاك موسى بن جعفر عليهما السلام: لا إلى اليهود، ولا إلى النصارى، ولا إلى المجوس، ولا إلى أعدائنا من النواصب، إلي، فأنا حجة الله، قد أجبتك عما في الجزء وبجميع ما تحتاج إليه منذ أمس، فجئني به، وبدرهم شطيطة الذي فيه درهم ودانقان، الذي في كيس أربعمائة درهم اللؤلؤي، وشقتها التي في رزمة الأخوين البلخيين.

قال: فطار عقلي، وجئت إلى رحلي، ففتحت وأخذت الجزو والكيس والرزمة، فجئت إليه فوجدته في دار خراب، وبابه مهجور ما عليه أحد، وإذا بذلك الغلام قائم على الباب، فلما رآني دخل بين يدي، ودخلت معه، فإذا بسيدنا عليه السلام جالس على الحصير، وتحته شاذكونه يمانية، فلما رآني ضحك وقال: لا تقنط، ولِمَ تفزع؟ لا إلى اليهود، ولا إلى النصارى والمجوس، أنا حجة الله ووليه، ألم يعرفك أبو حمزة على باب مسجد الكوفة جري أمري؟!.

قال: فزاد ذلك في بصيرتي، وتحققت أمره. ثم قال لي: هات الكيس فدفعته إليه، فحله وأدخل يده فيه، وأخرج منه درهم شطيطة، وقال لي: هذا درهمها؟

فقلت: نعم.

فأخذ الرزمة وحلها وأخرج منها شقة قطن مقصورة، طولها خمسة وعشرون ذراعا وقال لي: إقرأ عليها السلام كثيرا، وقل لها: قد جعلت شقتك في أكفاني، وبعثت إليك بهذه من أكفاننا، من قطن قريتنا صريا، قرية فاطمة عليها السلام، وبذر قطن، كانت تزرعه بيدها الشريفة لأكفان ولدها، وغزل أختي حكيمة بنت أبي عبد الله عليه السلام وقصارة[١] يده لكفنه فاجعليها في كفنك.

ثم قال: يا معتب جئني بكيس نفقة مؤناتنا فجاء به، فطرح درهما فيه، وأخرج منه أربعين درهما، وقال: إقرأها مني السلام، وقل لها: ستعيشين تسع عشرة ليلة من دخول أبي

(١)القصارة: فضل الشيء.

جعفر، ووصول هذا الكفن، وهذه الدراهم، فانفقي منها ستة عشر درهما، واجعلي أربعة وعشرين صدقة عنك، وما يلزم عليك..

ورجع النيسابوري إلى بلده بعد حجته، ومعه ما أعطاه الإمام موسى بن جعفر من أجوبة على مسائل أصحابه، وأربعين درهما لشطيطة، ونبأ مغادرتها الدنيا وفوق كل ذلك.. درس تعلمه هذا الرجل من إخلاص عظيم لامرأة عجوز!

حُميدة[1] بنت صاعد (المُصفّاة)

أم الإمام الكاظم عليه السلام

«حميدة مصفّاة من الأدناس كسبيكة الذهب ما زالت الأملاك تحرسها حتى أديت إلي كرامة من الله لي والحجة من بعدي»[2]

الإمام الصادق عليه السلام

الزوجات[3] الإماء:

ثمة ظاهرة تستوقف المراقب في حياة أهل البيت عليهم السلام الزوجية، تلك هي الزوجات الإماء الجواري أو حسب

---

(١) ضبط العلامة المامقاني الاسم مكبرا ، في تنقيح المقال

(٢) بحار الأنوار ٤٨/ ٦

(٣) يلاحظ أن الزوجة في الفقه تقابل المنكوحة بملك اليمين ، وهي قسيم لها ، وإنما استعملنا لفظ الزوجة فيها هنا جريا على ما هو المألوف

المصطلح (أمهات الأولاد)[1] ذلك أننا نجد أن زوجات الأئمة عليهم السلام بدءا من الإمام الصادق عليه السلام ممن قدر لهن أن يصبحن أمهات الأئمة كن جواري مملوكات!!

فأم الإمام الكاظم عليه السلام حميدة المصفاة وهي جارية اشتراها الإمام الصادق عليه السلام وكانت عنده بملك اليمين، وأنجبت له عددا من أولاده أفضلهم الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام، وزوجة الإمام الكاظم عليه السلام كانت جارية تسمى تكتم، أنجبت له الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وهكذا الحال فالإمام الرضا عليه السلام تزوج من جارية تسمى خيزران المريسية أنجبت له الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، ثم الجواد عليه السلام تزوج من سمانة المغربية أنجبت له الإمام الهادي عليه السلام الذي تزوج بدوره من سليل أو (حديث) والتي أنجبت له الإمام الحسن العسكري، و أخيراً فان أم الإمام

(١)تسمى الجارية التي تنكح بملك اليمين وتنجب (أم ولد) ، وذلك أنها تنعتق من نصيب ابنها بعد وفاة أبيه .

المهدي (عج) وزوجة الإمام العسكري عليه السلام أيضا جارية تسمى (نرجس). أي أننا نجد أن ستة من أهل البيت كانوا قد تزوجوا بجواري تملكوهن عبر الشراء، وقد يكون الأمر هينا لو اقتصر على مجرد الزواج للاستمتاع، فهذا أمر يفعله الكثير، ولكن أن يكون هذا الزواج بقصد الإنجاب، وان يخرج ستة من الأئمة عليهم السلام من أرحام هؤلاء النسوة فهو أمر مثير للتساؤل والملاحظة، خصوصا إذا أعدنا إلى الذهن تأثير الوراثة، إضافة إلى ما نعرفه من توجيهات الأئمة أنفسهم بضرورة الاختيار المناسب للزوجة، فإن الخال أحد الضجيعين، إضافة إلى مجموعة الاعتبارات الاجتماعية التي تراعى عادة في مثل هذه الحالات.

لا يبدو أن الأمر كان خاضعاً للصدفة وعدم الملاحظة، إذ قد يحدث ذلك في حالة أو حالتين، أما بهذه الصورة التي نراها فالأمر يبدو مقصودا أو على الأقل منتبها إليه فما هي الأسباب التي تقف وراء هذه الظاهرة؟!

عندما نتأمل في الروايات التي تتعرض لهذا الموضوع، نجد الأمور التالية تترافق معه:

١ـ إلغاء الاعتبارات الاجتماعية الخاطئة:

إن كلمة (ليتضع النكاح) تواجهنا في أكثر من مورد، وهي تبين فلسفة هذا العمل الذي يقوم به المعصومون عليهم السلام. ذلك أن الإسلام عندما جاء إلى المجتمع العربي كان هذا المجتمع قد ثبت مجموعة من العادات والأعراف كقوانين يجري عليها المجتمع جيلاً بعد جيل. فالأعراف المتعلقة بالعبيد والإماء، بما فيها من حيف وظلم وإلغاء لإنسانية هؤلاء البشر، كانت قد تحولت إلى قانون لا يخرقه إلا من يوصف عندهم بالشذوذ، والفوارق التي ثبتت بين القبائل من كون هذه القبيلة أعلى وتلك أدنى، عبر مفاخرات الشعراء، كانت قد تحولت إلى آيات مقدسة لا يرتاب فيها أحد. وليس غريبا أن تجد الشخص عديم الكفاءة في نفسه، ودني الخلق في سلوكه، ولكنه يبقى الأفضل لأنه من هذا البطن من قريش!!

عندما جاء الإسلام بتعاليمه السامية وضع حداً ـ من الناحية النظرية ـ لهذه الاعتبارات والتقاليد وألغاها سواء بالتوجيه إلى تساوي البشر في مصدر الخلق، والعبودية لله سبحانه أو بجعل مقاييس جديدة في الأفضلية لا تعتمد على الجنس واللون والقبيلة بل تعتمد على الكفاءة والجهد البشري الخاص بالفرد.

إلا أن السياسات الخاطئة بعد الرسول ﷺ وصعود بني أمية على دفة السلطة السياسية في الأمة، أعاد المسألة جذعة، وأرجع الحاضر إلى التاريخ الجاهلي، فإذا بنار العصبيات تشتعل وأي اشتعال!! وإذا بشعر المنافرات والمفاخرات ينبعث ماردا من قمقمه، وإذا بتلك التقاليد والأعراف الجاهلية تعود من جديد!!

فالمسلم الموحد صاحب الكفاءة، والمخلص لإعلاء كلمة الدين، يبعد من الساحة، لا لشيء إلا لأنه (مولى) أو(أعجمي)، وحتى قال قائلهم لأمير المؤمنين عليه السلام: غلبتنا

هذه الحمراء عليك يا أمير المؤمنين، فلو طردتهم!! وحتى منع غير العرب من الدخول إلى المدينة!! وحتى أصبح في المسلمين طبقة جديدة تسمى (الموالي) والحمراء وغير ذلك!!

«لقد كان مفروضا أن يكون هؤلاء الموالي في منزلة اجتماعية تتساوى ـ من الناحية الإنسانية على الأقل ـ مع منزلة العرب وذلك وفقاً للمبادئ الديمقراطية التي جاء بها الإسلام وأعلنها الرسول في خطبة الوداع المشهورة وهي تلك المبادئ التي تجعل تمايز الناس لا على أساس من الأصل أو الحسب وإنما على أساس من التقوى، ولكن المثالية شيء، والواقع شيء آخر فلم يكد ينقضي عهد الخلفاء الراشدين ويودع المجتمع الإسلامي علي بن أبي طالب الذي يروى انه قال «لا فضل لشريف على مشروف ولا عربي على أعجمي» حتى اخذ العرب في العصر الأموي ينظرون للموالي نظرة السيد للعبد، ومضوا يعاملونهم لا تلك المعاملة الإسلامية الرقيقة التي أمرهم بها الله ورسوله وإنما معاملة اقل ما توصف به أنها بعيدة عن روح الإسلام السمح ومجانبة لمبادئه الإنسانية السامية فقد

كانوا يرونهم جنساً منحطاً لا يمتاز عن العبيد إلا قليلاً أو كما يقول شبث بن ربعي أحد أفراد الارستقراطية الكوفية البارزين: فيئا افاءه الله عليهم، وقد وصل الأمر ببعض العرب إلى درجة أنهم كانوا يرون الصلاة خلفهم تواضعا لله!! بلى لقد وصل الأمر بالشعبي قاضي الكوفة في خلافة عمر بن عبد العزيز إلى التصريح بأن الموالي قد بغضوا إليه المسجد حتى تركوه ابغض إليه من كناسة داره. ولهذا لا نجد غرابة عندما نسمع في حوالي منتصف القرن الثاني عن مسجد في الكوفة يسمى (مسجد الموالي) الذي يميل (خدا بخش) إلى الظن بأنهم اضطروا إلى تأدية صلواتهم فيه بعد أن رأوا تعصب العرب ضدهم لم يكن يسمح لهم حتى بالعبادة في مسجد واحد»[1].

وطعن الإسلام من الخلف، حيث أصبح من يتزيا بلباس الدين، بل من يلبس رداء الخلافة يخالفه في ابسط قواعده في المساواة، والاعتبار الواحد. وكان الرد على هذه التحولات

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ١٦٩.

يحتاج إلى عمل، إضافة إلى التوجيه وكما قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بفعل ذلك في مسألة زواج زيد بن حارثة مولاه بزينب بنت جحش ابنة عمته، وزيد كان غلام رسول الله ومولاه، بينما كانت زينب بنت جحش قد حازت المجد العائلي من طرفيه فهي اسدية الأب وهاشمية الأم. ومع ذلك زوجها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (ليتضع النكاح)، أي لكيلا تصبح هذه الاعتبارات الاجتماعية عقدة عند الناس يمتنعون من زواج بعضهم البعض تبعا لها.

ونحن نجد في النص الذي يروى عن الإمام السجاد عليه السلام تصريحا بهذا المعنى، ذلك إن الإمام السجاد عليه السلام كان قد اعتق إحدى جواريه وتزوجها، ونظرا لكون الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لا يزال يعيش في جو الاعتبارات التي تحدثنا عنها، فقد وجدها فرصته في الطعن على الإمام عليه السلام.

فعن يزيد بن حاتم قال: كان لعبد الملك بن مروان عين

بالمدينـة يكتـب إليـه بأخبـار مـا يحـدث فيهـا، وأن عـلي ابـن الحسين عليه السلام اعتق جارية له ثم تزوجها، فكتـب العـين بـذلك إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى علي بن الحسين عليه السلام:

أما بعد فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمت أنه كـان في اكفائك من قريش من تمجد به في الصهر و تستنجبه في الولد فلا لنفسك نظرت ولا على ولدك أبقيت.. والسلام.

فكتب إليه علي بـن الحـسين عليه السلام: أمـا بعـد فقـد بلغنـي كتابك تعنفني بتزويجي مـولاتي وتـزعم انـه قـد كـان في نـساء قريش من أمجد به في الصهر واسـتنجبه في الولـد.. وانـه لـيس فوق رسول الله مرتقى في مجد ولا مستزاد في كـرم وإنـما كانـت ملك يميني خرجت مني ـ أراد الله عز وجل ـ بأمر التمست به ثوابه ثم ارتجعتها على سنته ومن كـان زكيـا في ديـن الله فلـيس يخل به شيء من أمره وقد رفع الله بالإسلام الخسيـسة وتمـم بـه النقيصة واذهب اللؤم، فلا لؤم على امرئ مسلم إنما اللؤم لـؤم الجاهلية.. والسلام.

فلما قرأ الكتاب رمى به إلى ابنه سليمان فقرأه فقال: يا أمير المؤمنين لشد ما فخر عليك علي بن الحسين!! فقال له يا بني لا تقل ذلك فإنها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من بحر.. إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتضع الناس[1]

فانظر إلى الفرق بين منطق التمييز الجاهلي ومنطق المساواة الرسالي.

٢ ـ كنّ مؤهلات لاحتضان الأئمة:

الذي ثبت في التاريخ أن هؤلاء الجواري كن نجيبات ومنجبات، فقد سبق وان بينا، انه كان للمعصومين عليهم السلام زوجات عديدة بين جوارٍ وحرائر إلا أننا نلحظ أنه بدءا عن أيام الصادق عليه السلام، كانت الزوجات الأثيرات والنجيبات والمنجبات للأئمة كانت الجواري مع وجود الحرائر وبعضهن ممن يتمتعن بمجد عائلي متميز ـ حسب المقاييس السائدة آنئذ ـ إلا أن هؤلاء الجواري هن اللاتي اختصصن باحتضان الأئمة

(١)بحار الأنوار ٤٦/ ١٦٤

المعصومين عليهم السلام.

يـضاف إلى ذلـك أن علينـا أن نتوجـه جيـداً إلى معنـى (الجـواري) فـان المتبـادر منهـا عنـد النـاس، لا يمثـل المعنـى الحقيقي لهذه الكلمة. ذلك إن المتبادر إلى الذهن عـن الجـواري هو تلـك الإمـاء الزنجيـات المتهنـات بالعمـل، والخادمـات اللاتي لا أخلاق عالية لهن، أو تلك النـساء الـلاتي ينـتقلن مـن حضن إلى آخر للمتعة والجنس، وهـذا التبـادر وان كـان واردا إلا أنه مـن بـاب الـشائع، لا أن كـل الجـواري كـن عـلى هـذه الشاكلة، فإننا نجد أن الكثير من هؤلاء النساء كـن مـن بيـوت شريفة في مجتمعاتهن ولكن تبعاً لظروف الحـرب ومـا تجـر مـن سبي للنساء، فلم يكن هـذا الـسبي يميـز بـين ذوي البيوتـات الرفيعة أو غيرها، بل ربما كانت نساء البيوت الرفيعـة اجتماعيـاً اقرب إلى السبي والغنيمة من غيرها، نظرا لكـون رجـال هـذه البيـوت يـشكلون القـادة الـسياسيين أو العـسكريين في المجتمعات التي فتحت على يد المسلمين، فكان هؤلاء الرجـال

يقتلـون أو ينهزمـون في هـذه الحـروب بيـنما. تـؤسر نـساؤهم وبناتهم ويؤخذن على شكل غنائم وجـواري. ولعلنـا نجـد في قصة ابنتـي يزدجـرد مـصداقاً واضـحا لهـذا المعنـى، ذلـك إن جيوش المسلمين عندما دحرت جيوش الفرس واستولت عـلى إيران ساقت من الغنائم الشيء الكثـير، وكـان مـن بـين ذلـك النساء اللاتي سـبين وحـسب العـرف المتبـع فـإنهن يـسترققن ويدخلن في ملك المسلمين إلا أن أمـير المـؤمنين عليه السلام بـينّ أن هاتين البنتين من بنات الملوك. وتبعـاً لتوجيـه الإسـلام بـإكرام أهل الكرم الذين خانهم الزمن[1]، أعتـق نـصيبه ونـصيب بنـي هاشم فيها فـاعتق المـسلمون تبعـا لـذلك نـصيبهم، وخيرهمـا الإمام فاختارت إحداهما الإمام الحسين عليه السلام وأصـبحت فـيما بعد أم الإمام السجاد عليه السلام وماتت في نفاسـها بـه، والأخـرى اختارت محمد بن أبي بكر فأنجبـت القاسـم بـن محمـد بـن أبي بكر، ويقول المؤرخون إن الناس كـانوا يرغبـون عـن اسـتيلاد

(١)جاء في الحديث: أكرموا ثلاثة وحق لهم أن يكرموا : غني افتقر بعد غناه، وعزيز قوم ذل، وعالم ضاع بين جهال.

الجواري خشية من أن يكون النسل غير نجيب، حتى ولد زين العابدين عليه السلام والقاسم بن محمد بن أبي بكر فرأى الناس في الأول أفضل الناس بعد أبيه علماً ومعرفة وتقوى، ورأوا في الثاني فقيها من كبار الفقهاء، فرغبوا في استيلادهن.

بل ربما يقال إن عوامل الوراثة ستكون في خدمة هذا المولود الناتج بين عنصرين إذ أثبت العلماء إن العادة، أن يحمل المولود خلاصة ايجابيات ونقاط قوة كل من العنصرين (الفارسي والعربي في المثال).

ولعل الأحاديث التي توجه إلى التزاوج خارج العائلة الواحدة والاختيار من العوائل الأخرى باعتبار أن ذلك (أنجب للولد)، وأقوى لصحة جسمه، ولمدركاته العقلية، لعل هذه الأحاديث تشمل التزاوج مع الأجناس الأخرى بوحدة المناط فتؤيد ما ذكر آنفا.

ونلمس هذا الأمر بوضوح حينما نجد إن المعصومين من أهل البيت عليهم السلام ممن كانت أمهاتهم جواري كانوا في أعلى

درجات العلم «والمعرفة (الجانب العقلي) والتقوى والاتزان (في السلوك)، بل كانوا في أزمنتهم (أئمة) بكل معنى الكلمة ولا نستطيع أن نجد لأحدهم زلة في قول أو خطلة في فعل، وهذا إضافة إلى العصمة التي نفترضها فيهم عليهم السلام يهدينا انه لم تكن آثار سلبية في حياتهم نتيجة الوراثة من أمهاتهم، ومما يدل على أن أمهاتهم كن في مستوى عال من التدين والأخلاق.

❀❀❀

المكان: مجلس الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في المدينة المنورة. ويدخل في هذه الأثناء ابن عكاشة الأسدي، فيرى أبا عبد الله جعفر (الصادق) بن محمد الباقر عليهما السلام، وكان لا يزال شابا فيقول الأسدي للإمام الباقر عليه السلام لأي شيء لا تزوج أبا عبد الله فقد أدرك التزويج؟

ويجيبه الإمام الباقر بينما كان بين يديه صرة مختومة: يأتي نخاس (بائع الجواري) من أهل بربر ينزل دار ميمون فنشتري له بهذه الصرة جارية!

ومرت الأيام، ونسي ابن عكاشة الموضوع، وعاد مع

جماعة لزيارة الإمام الباقر عليه السلام ذات يوم فبادرهم الإمام قائلا: ألا أخبركم عن النخاس الذي ذكرته لكم.؟ قد قدم فاذهبوا واشتروا بهذه الصرة منه جارية!

قال ابن عكاشة: فأتينا النخاس فقال: قد بعت ما عندي الا جاريتين مريضتين إحداهما أمثل من الأخرى، قلنا: فأخرجهما حتى ننظر إليهما فأخرجهما، فقلنا بكم تبيع الجارية المتماثلة؟ قال: بسبعين دينارا. قلنا: أحسن! قال: لا أنقص من سبعين فقلنا له: نشتريها منك بهذه الصرة ما بلغت وما ندري ما فيها. قال: فكوا الصرة وزنوا الدنانير، ففعلنا فإذا هي سبعون دينارا لا تزيد ولا تنقص..

أخذنا الجارية وأتينا بها إلى أبي جعفر، وجعفر قائم عنده وأخبرنا أبا جعفر بما كان فحمد الله ثم قال: ما اسمك؟ قالت: حميدة في الدنيا محمودة في الآخرة[1]..

مرشدة النساء ووعاء الإمامة

كسبيكة الذهب التي توضع في يد صائغ مقتدر، تشكلت شخصية حميدة بعيدا عن الشوائب والأدناس والصفات

---

(١)بحار الأنوار ج ٤٨/ ٦

السيئة، وكان حريا بها بعد ذلك أن تكون أم خير أهـل الأرض في زمانه موسى بن جعفـر، بيـنما لم يحـظ بهـذا الـشرف حرائـر قرشيات ومن قريبات الإمام الصادق عليه السلام، وذلك يـشير إلى قانون هام في النظام الإسلامي أن النسب لا يكفي لصناعة كل شيء وأن (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) لا في هـذه الـدنيا ولا في تلك الأخرى.

النسب أمر قهري لم يكن للمرأة قرار فيه، لا في صنعه ولا في إلغائه، فقد جاء ضمن سلالة معينة، من أب وأم لم يختر همـا، ولا يستطيع الانفكاك عن الانتساب إلـيهما، لكنـه يـستطيع أن يعـيش شخـصيته الخاصـة بـه، وينتخـب طريقـة الحيـاة التـي يستحسنها، ويختار درب الهداية أو ضـدها. وهـذا أمـر يمكــن للناس أن يتنافسوا فيه، وعليه ينبني تقييم مواقفهم، وحياتهم.

استوعبت من حياة الأئمـة مـا اسـتطاعت، وشـاءت لهـا كرامة الله أن تكون في بيت مركز دائرة والمعرفة، وحامـل لـواء العلم النبوي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فعبت ونهلت من

ذلك المعين الصافي، ولذلك كان يحيل الإمام لها المسائل التي ترتبط بالنساء، ويظهر من رواية عبد الرحمن بن الحجاج وهو من خيار الثقات وعلماء أهل البيت عليهم السلام، أن الإمام عليه السلام عندما أمره بأن تلقى إحدى نسائهم حميدة لتسألها عن كيفية العمل بالصبي الصغير في إحرام الحج.. يظهر أن أمر الإرجاع إليها في قضايا النساء كان طبيعيا.

فقد روى عبد الرحمن بن الحجاج أنه أرسل إلى الإمام الصادق جملة مسائل وكان يريد الجوار بمكة، فسأله عما يرتبط بحج الإفراد باعتباره سيجاور..إلى أن قال: وأرسلت إليه أن معنا صبيا مولودا، فكيف نصنع به؟ قال عليه السلام: مر أمه تلقى حميدة فتسألها كيف تصنع بصبيانها؟ فأتتها فسألتها كيف تصنع فقالت: غدا كان يوم التروية فأحرموا عنه وجردوه وغسلوه كما يجرد المحرم وقفوا به في المواقف، فإذا كان يوم النحر فارموا عنه واحلقوا عنه رأسه، ومري الجارية أن تطوف به بين الصفا

والمروة[1].

ومع أنه لم ينقل في الكتب الحديثية إلا القليل عنها من الرواية، إلا أنه لا شك أنها كانت توجه النساء فيما يرتبط بالمسائل الخاصة بهن من أحكام الدماء، وما شاكلها..وربما لو لم ينقل عبد الرحمن بن الحجاج قضية توجيهها النساء فيما يعملن بصبيانهن في أمر الإحرام، لكان هذا أيضا مجهولا، وغير واضح. وهكذا الحال فيما نقل عنها من أمر اهتمام الإمام الصادق عليه السلام ووصيته بالصلاة في آخر ساعاته من الدنيا، فقد روى أبو بصير: دخلت على حميدة أعزيها بأبي عبد الله، فبكت وبكيت لبكائها ثم قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله عند الموت لرأيت عجبا.. فتح عينيه ثم قال: اجمعوا لي كل من بيني وبينه قرابة.. فما تركنا أحدا إلا جمعناه، فنظر إليهم وقال: إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة[2].

---

(١)الكافي ٤/ ٣٠١.

(٢)وسائل الشيعة ج ٤/ ٢٦ .. وفي المتن أنه دخلت على أم حميدة ، ولا يخفى أنه تصحيف أو خطأ مطبعي .

❁❁❁

وشاء الله سبحانه أن يكون النور السابع من أنوار الإمامة ، وريث علم أبيه، وحامل لواء جده المصطفى، سمي الكليم موسى بن جعفر في رحم هذه الطاهرة من الأدناس فقد روى في البحار عن أبي بصير قال: كنت مع أبي عبد الله في السنة التي ولد فيها ابنه موسى فلما نزلنا الأبواء وضع لنا أبوعبد الله الغذاء ولأصحابه وأكثره (أي الغذاء) وأطابه، فبينا نحن نتغذى إذ أتاه رسول حميدة: أن الطلق قد ضربني وقد أمرتني أن لا أسبقك بابنك هذا، فقام أبو عبد الله فرحا مسرورا فلم يلبث أن عاد إلينا حاسرا عن ذراعيه ضاحكا سنه.. فقلنا أضحك الله سنك وأقر عينك! ما صنعت حميدة؟

قال: وهب الله لي غلاما وهو خير من برا الله ولقد خبرتني بأمر كنت أعلم به منها.

قلت جعلت فداك: وما الذي أخبرتك عنه حميدة؟ قال: ذكرت أنه لما وقع من بطنها وقع واضعا يديه على الأرض رافعا

رأسه إلى السماء، فأخبرتها أن تلك أمارة رسول الله وأمارة الإمام من بعده[1]...

وتربى الإمام الكاظم عليه السلام في حجر هذه المرأة التي هي كتلة صفاء ونقاء وطهر، وإلا لم تكن لتتأهل لاحتضان هذا الطاهر الطيب أو لتربيته!

نموذج لعلاقة الحماة والزوجة

تُعرض في هذه الأيام ـ بل حتى في السابق كما يستفاد من قصص التاريخ ـ العلاقة بين أم الزوج (الحماة) وبين الزوجة على أنها علاقة متوترة بالضرورة وسيئة حتما، وربما نُظر لها باعتبار الصراع على الرجل الذي هو من طرفٍ زوج ومن آخر ابن، وتتنافس على جلب اهتمامه، وحمايته كل من الحماة والزوجة، لا سيما لو كانا في بيت واحد، وربما وصلت الأمور إلى حدود اختيار الرجل لأحد الطرفين، ورمي الخيار الآخر، فإما أن يحتفظ بزوجته ويبقي على بيته الجديد ولكنه يتعرض

(١) بحار الأنوار ٢٥/ ٢٣

إلى غضبة أمه التي تعتبره عاقا، وإما أن يحتفظ بود أمه ويهدم بيته..

ولقد بالغ هؤلاء في تصوير حتمية الخلاف والنزاع والشقاق بين الطرفين، والأمر كله ليس عائدا إلى الموقع والصفة أي كون هذه حماة، وتلك زوجة ابن ليس مبررا لوجود مثل هذه العلاقة، وإنما المشكلة أخلاقية، فكيف ينبغي أن يتم التعامل بين هاتين الشخصيتين، وهي محكومة تماما بسائر قوانين التعامل بين طرفين، سواء كانا في بيت واحد أو مجتمع واحد.

والمقصود أنه كما أن كون شخص ابن عم لآخر لا يصنع سوءا في العلاقة بينهما ـ بمجرده ـ ما لم يحدث سوء في التعامل وفي إدارة العلاقة تلك، فكذا الحال بين الحماة والزوجة.

ولعل هذه الثقافة التي بثت في المجتمع حتى غدت من شبه المسلمات هي التي تكرر وتعيد إنتاج العلاقة السيئة في مظاهر جديدة لتكون دليلا آخر يثبتها ويجددها.. وهكذا فهي

أشبه بفيروسات الكمبيوتر التي تعيد إنتاج نفسها، وتكثير نفسها في برامج جديدة وأجهزة جديدة.

والحق أن الأمر ليس حتميا ولا ضروريا فإننا قد وجدنا أن من كان متمسكا بحبال الأخلاق ومتعلقا بعروتها، استطاعوا أن يخلفوا لنا صورة من أفضل الصور حول نمط العلاقة بين أم الزوج (الحماة) وبين الزوجة، فهذا مثال أمامنا هو نمط العلاقة الذي كان بين حميدة والدة الإمام الكاظم عليه السلام التي كما قامت على تربية ابنها موسى الكاظم عليه السلام، فقد باشرت تربية الجارية التي شاء لها سعد حظها وحسن توفيقها أن تكون زوجته ووالدة للإمام الرضا عليه السلام فيما بعد. وهي تُكتم أو نجمة. فإنها بعد أن أخذت عن حميدة ما أخذت من مكارم الأخلاق ومن العلم والمعرفة بأمور الدين، وكانت تعز مولاتها حميدة وتحترمها احتراما بالغا، فإنها كما نقلوا لم تجلس بين يديها، فلما كملت..وكان الإمام الكاظم عليه السلام قد بلغ سن التزويج، فوهبتها له قائلة لابنها الكاظم عليه السلام: يا بني إن تكتم جارية ما رأيت جارية قط أفضل منها ولست أشك أن الله تعالى سيطهر نسلها إن كان

لها نسل، وقد وهبتها لك فاستوص بها خيرا[١].

مبعوثة الإمام في الحقوق الاجتماعية

مع أن حميدة كانت في هذا المستوى الرفيع علما وعملا، ومنزلة، إلا أنها لم تحول هذا الموقع إلى مادة للكبر، والافتخار كما يحلو لبعض أن يفعل، وإنما كانت تقوم بزيارات اجتماعية تقضي فيها حقوق أهل المدينة، فلم تكن لتقنع بأنها في بيت العصمة، وأنها محتوية على كثير من العلم، وبالتالي فإن على النساء أن يأتين إليها وإنما كانت تذهب من قبل الإمام في قضاء الحقوق الاجتماعية، في تعزية هذه العائلة، وفي المشاركة في أفراح تلك العائلة كما يظهر من رواية الكاهلي، فقد سأل الإمام الكاظم عليه السلام، عن ذهاب النساء إلى المآتم لتعزية بعض العوائل المصابة بفقيدها، وهل يجوز أو لا يجوز أن تذهب النساء في ذلك ويظهر أنه كان موضع أخذ ورد بين الكاهلي وزوجته، فقد روى عبد الله الكاهلي قال: قلت لأبي الحسن (الكاظم) عليه السلام: إن امرأتي وامرأة بن مارد تخرجان في المأتم فأنهاهما فتقول امرأتي: إن كان حراما فانهنا عنه حتى نتركه،

(١)المصدر السابق ٤٩/ ٥

وإن لم يكن حراما فلأي شيء تمنعناه فإذا مات لنا ميت لم يجئنا أحد؟

فقال عليه السلام: عن الحقوق تسألني؟ كان أبي عليه السلام يبعث أمي وأم فروة تقضيان حقوق أهل المدينة[1].

سلام على أم باب الحوائج، وعاء الإمامة، المصفاة من الأدناس.

(١) الكافي ٣ / ٢١٧ .. وأم فروة اسم لوالدة الإمام الصادق عليه السلام وهي بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وهو اسم لإحدى بناته عليه السلام، والظاهر أنها هي المقصودة هنا. لا والدته، والله العالم.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. ابن خلدون: عبدالرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٣. أبوفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، دار الكتاب، قم.

٤. آل سيف: فوزي، رجال حول أهل البيت، دار الصفوة، بيروت.

٥. الأمين: السيد محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت.

٦. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت.

٧. التفرشي: السيد مصطفى بن الحسين الحسيني، نقد الرجال، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.

٨. الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لأحياء التراث، بيروت.

٩. الصدر: السيد حسن، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، شركة النشر والطباعة- بغداد.

١٠. الصدوق: محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١١. الطوسي: محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال، تحقيق مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٤هـ.

١٢. عبده: الشيخ محمد، نهج البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٣. العسكري: مرتضى، معالم المدرستين، مؤسسة النعمان، بيروت.

١٤. القمي: عباس، الكنى والألقاب.

١٥. القمي: عباس، سفينة البحار، مكتبة السنائي، قم.

١٦. الكليني: الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلامية، قم.

١٧. المامقاني: عبدالله، تنقيح المقال، المكتبة المرتضوية، النجف.

١٨. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، مؤسسة الوفاء، بيروت.

١٩. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر.

٢٠. المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة السادسة والعشرون، انتشارات اسماعليان، طهران.

٢١. النجاشي: أحمد بن علي، رجال النجاشي، جماعة المدرسين، قم.

المحتويات

للمؤلف

١. طلب العلم فريضة.
٢. الهجرة مستقبل أفضل.
٣. حجر بن عدي الثائر الشهيد.
٤. مفهوم التقية في الإسلام.
٥. عن الجهاد والثورة عند أهل البيت.
٦. بناء القادة في منهج أهل البيت.
٧. الحياة الشخصية عند أهل البيت.
٨. نظام الإدارة الدينية عند الشيعة الإمامية.
٩. التشكيك.. كيف واجهه أهل البيت.
١٠. رجال حول أهل البيت (جزءان).
١١. نساء حول أهل البيت (جزءان).
١٢. من قضايا النهضة الحسينية (١ـ ٣).
١٣. في رحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم

١٤. في رحاب الإمام علي عليه السلام.

١٥. في رحاب الإمام الحسن عليه السلام.

١٦. في رحاب الإمام الحسين عليه السلام.

١٧. في رحاب الإمامين السجاد والباقر عليهما السلام.

١٨. تأملات في آيات الظهور.

١٩. شيعة القطيف والاحساء عراقة وتطلعات.

لاقتراحاتكم وآرائكم يمكن الاتصال بالمؤلف

www.al-saif.net

fawzialsaif@hotmail.com